

دراسات في الشعر العُماني

دكتور / سعد عبيس

١٩٩٢

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش بونير - الإسكندرية
٤٨٣٠١٦٣ : ت

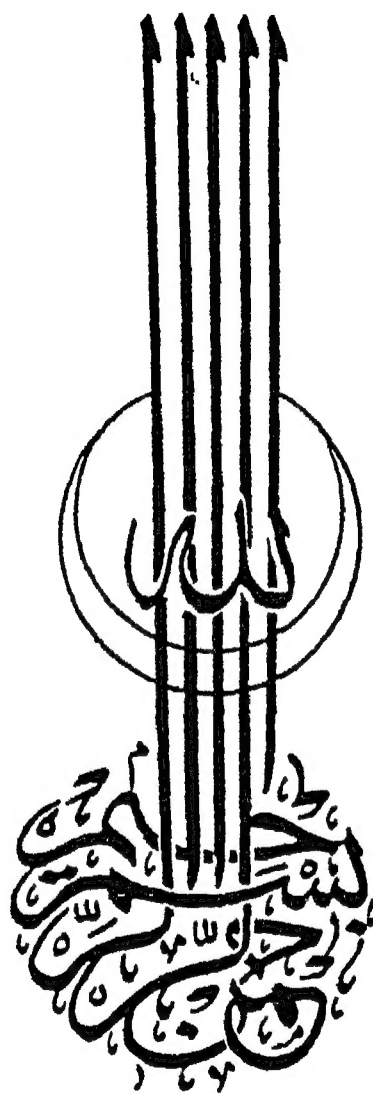


دراسات في الشعر العُماني

دكتور/ سعد عبيس

١٩٩٢

دار المعرفة الجامعية
ب- ش. سوتير - إسكندرية
٤١٣٠١٦٣ : ت



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حاولت في هذا الكتاب إلقاء بعض الأضواء ، على بعض التيارات الفكرية والفنية في الشعر العُماني ، ولعل أهم عامل من العوامل التي وجهتني إلى هذه الدراسة :

إحساسى الشديد بحاجتى وحاجة دارسى الأدب في الأقطار العربية الأخرى (خارج سلطنة عُمان) إلى اكتشاف الطريق إلى عالم الشاعر العماني — قديماً وحديثاً — بمكوناته البيئية والتاريخية ، والفكرية ، والفنية ، وبالتالي اكتشاف الطريق إلى مزيد من التقارب والحب ، المبنيين على مزيد من الدراسة والفهم ، وليس كالشعر والأدب وسيلة للتواصل الوجداني والفكرى بين أبناء الأمة العربية ، بالإضافة إلى ما يربطهم من وشائج أخرى كالدين واللغة والتاريخ ... !

لقد آن الأوان لأن نعطي للثقافة المشتركة ، والتيارات الأدبية المشتركة ، حقهما من الاهتمام ، ومن هنا .. كان إحساسى بأهمية هذه الدراسة — أو هذه المحاولة لدراسة بعض تيارات الشعر العماني — في تعميق أواصر التقارب الفكرى والثقافى ، والتجاوب الروحى والعاطفى بين أبناء البلاد العربية ، وبخاصة في هذه المرحلة الراهنة ، التي أصبحت فيها أمتنا العربية ، مهددة بعوامل التمزق والتجزئة ، التي يحاول الاستعمار ، بشتى أشكاله واتجاهاته ، إشعال نيرانها في العالم العربى ، عن طريق تكريس النزعات العنصرية والإقليمية ، وتهيئة المناخ الفكرى والسياسى ، لعودة عهد « ملوك الطوائف » من جديد .. ! لنفاجأ كل يوم بأندلس جديدة ، تنتزع أمام أعيننا من خريطة الوطن العربى الحبيب .. !

ومن ثمَّ فإنى أرى أن دراسة التيارات الأدبية ، باتجاهاتها الفكرية والفنية المشتركة بين أقطار الوطن العربى ، من أكبر العوامل التي تقف سدّاً منيعاً ، أمام مؤامرات التفرقة والتجزئة التي تعزف على أوتار الشعارات الإقليمية البراقة ، والمكاسب القطرية الخادعة ، تلك المؤمرات التي يرادى لها أن تدق

طبول الحرب ، والاقتتال الداخلي من جديد ، في تلك المرحلة الحزينة التي يمرُّ بها وطننا العربي ... ! ومن هذا المنطلق كانت تلك الدراسة المقارنة التي قدمتها في المبحث الأول من مباحث الكتاب ، وهي : تيار الغزل التراثي بين (النبهاني) و (البارودي) .. ! .

وعُمان العريقة في عروبتها وإسلامها ، غنية بشعرائها وعلمائها ، ولها تراثها المضيء في مجالي العلم والأدب ، فمنذ أقدم العصور .. منذ (مالك بن فهم) تلقانا صفحات مشرقة من إبداعات الشعراء العُمانيين .. بدءاً بمالك بن فهم — الذي يروى له مؤلف كتاب « كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمة » : هذه الأبيات ، في لوحة الغربة والحنين إلى الأوطان^(١) : —

تحنُّ إلى أوطانها إِبْلُ مالكٍ ومن دُونِها عرضي الفَلَا والدكادِكِ
وفي كل أرضٍ للفتى مطلبٌ وليستُ بدار الذَّلِّ يوماً برامِكِ
ستغنيك عن أرض الحجاز مَشارِبُ رحابِ النواحي .. واضحات المسالكِ

ومروراً بكعب بن معدان ، والعلماء الشعراء من أمثال : الخليل بن أحمد ، وابن دريد ، وسعيد بن راشد بن محمد بن بشير الغشري الخروصي الأزدي^(٢) ، وأبو محمد ناصر بن محمد بن سليمان الخروصي الأزدي السمائي الحاجري — صاحب اليد الطولى في النظم والنثر — كما يقول صاحب كتاب « الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين^(٣) » — ووصولاً إلى شعراء عمان في العصر الحديث ، وعلى رأسهم الشاعر الكبير الشيخ عبد الله بن علي الخليلي — أُمَامَ هذه المراحل من تاريخ الإبداع الشعري في (عُمان) كان على علماء عمان الحديثة ، ونقادها وشعرائها ، أن يقوموا بمجهودات كبيرة في دراسة ذلك التراث وتقديمه للدارسين والمهتمين بالأدب في عالمنا العربي

(١) كتاب تاريخ عمان — المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، ص ١٩ — تأليف : سرحان بن سعيد الأركوي العُماني — تحقيق عبد المحيد حسيب القيسي — نشر وزارة التراث القومي والثقافة

(٢) وقد ذكر مؤلف كتاب « الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين » لهذا العالم الشاعر نماذج جميلة من شعره ، وأشار إلى أن له مقامة نثرية على موال مقامات الحريري ، سماها « المقامة السُوبية » — انظر هذا الكتاب — ص ١٨٢ — وما بعدها — تأليف حميد بن محمد بن رزيق — تحقيق : عبدالمعصم عامر ، د . محمد مرسى عبد الله

(٣) المرحوم السابق — ص ٩٠ — ص ٢١٠

الحديث .. ومن ثمَّ كان هذا الاهتمام البالغ من وزارة التراث القومي والثقافة
بسلطنة عُمان ، بإحياء التراث العماني في مجال العلم والثقافة ، ونشر
المخطوطات العلمية والأدبية ، ومعالى وزير وزارة التراث القومي والثقافة يرى
أن اهتمام الوزارة بذلك التراث ، إنما هو بدافع من الروح القومية والشمم
العربي ، وفي ذلك يقول (١) :

« وإذا كان آباؤنا قد عنا بتسجيل تاريخ عمان ، فإننا قد حَلَزْنَا حذوهم ،
وترسمنا خطاهم ، حيث نولى تاريخ أجدادنا وأهلينا الأقدمين ، مزيداً من الروح
القومية ، والشمم العربي » .

ولعل من أبرز الإنجازات الثقافية التي قامت بها وزارة التراث القومي ، في
مجال الشعر والدراسات الأدبية ، قيامها بنشر دواوين كثير من أعلام الشعر
العُماني ، وقام بتحقيق هذه الدواوين وشرحها والتقديم لها ، علماء أجلاء ،
وشعراء ونقاد بارزون ، ومن حق هؤلاء العلماء والشعراء أن نشيد بالجهود
الذي بذلوه ، في تقديم هذه الدواوين إلى الدارس والقارئ العربيين في كل
مكان ، وعلى سبيل المثال — لا الحصر — يسعدني أن أشير إلى الجهد الطيب
الذي بذلته الوزارة في تحقيق وشرح ديوان (النبهاني) (٢) وديوان (السيد
هلال بن بدر البوسعيدى) (٣) وديوان (ألى مسلم البهلافي) (٤) ... هذا
الشاعر الذي كان أمير شعراء عصره ، والذي أجده في قصيدته (أفيقوا بني
القرآن) كأنما بُعث من جديد ، في أيامنا هذه .. ! حين نراه يصور في تلك
القصيدة ، مأساة التمزق العربي الإسلامي ، إذ يقول : —

وليت بنى الإسلام قَرَّتْ صفائهم فما زعزعته للغرور الزعازعُ
وليتهم لم ينحروا بسلاحهم تُحَوَّرْهم .. إذ جاش فيها التقاطعُ .. !
لقد مكن الأعداء منا انخداعنا وقد لاح آل في المهامه لامع .. !
وسورة بعض فوق بعض وحيلة ليزيد على عمرو .. ومائل رادع .. !

(١) من تقديم معالي / فيصل بن علي بن فيصل / وزير التراث القومي والثقافة — لكتاب « الفتح المبين في
سيرة السادة البوسعديين » .

(٢) تحقيق وشرح الشاعر سليمان بن خلف الخروصي .

(٣) تحقيق وشرح الناقد / محمد الصليبي .

(٤) أشرف على تحقيق القسم الأول منه . مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب

سنة ١٩٨٠

وتمزيق هذا الدين .. كُلُّ لَمَذَهَبٍ له شَيْعٌ فيما ادَّعاهُ تُشَايِعُ .. !
وما الدينُ إلَّا واحدٌ. والذي تَرى ضلالاتُ أتباعِ الهوى تتقارُعُ .. !
وما تَرَكُ المختارُ ألفَ ديانةٍ ولا جاءَ في القرآن هذا التنازعُ .. !
فيا ليتَ أهلَ الدينِ لَمْ يَتَفَرَّقوا وليتَ نظامَ الدينِ للكُلِّ جامعٌ^(١) .. !
ولا نريد هنا أن نسترسل في بيان الجهود التي بذلتها الوزارة والهيئات الثقافية في نشر التراث العلمي والثقافي وتحقيقه ، فليس هذا مجاله ، وإنما أردتُ فقط بهذه الإشارات الموجزة ، أن أؤكد على أهمية هذا التراث ، والجهود المبذولة لدراسته وتحقيقه ونشره ، ولا يسعني هنا أيضاً ، إلا أن أشيد بالدراسات التي قدَّمها بعض النقاد العمانيين والمصريين في مجال دراسة الشعر العماني — قديمه وحديث .. !

وفي هذا المجال ، يسعدني أن أتقدم بكتابي هذا الذي يستهدف دراسة بعض قضايا الشعر العُماني وتياراته ، وقد كان لمكتبة جامعة السلطان قابوس ، أثرها المشكور في إمدادي بكثير من مراجع هذا الكتاب ، بالإضافة إلى اتصالاتي المباشرة وحواري مع بعض الإخوة من شعراء عُمان ونقادها .

ويقوم هذا الكتاب على خمسة مباحث تتناول القضايا الآتية :

- (١) تيار الغَزَل الترائي بين النهائي والبارودي .
 - (٢) الرؤية الوطنية في الشعر العماني الحديث .
 - (٣) الغربة والحب في شعر هلال العامري .
 - (٤) تيار الغزل في شعر سعيد الصقلاوي — بين التراث والمعاصرة —
 - (٥) الشاعر عاصم السعيدى بين المعارضات التراثية والرؤية الرومانتيكية .
- وأرجو أن تقدم هذه الدراسات : إضافة جديدة ، وإثراء مفيداً ، في مجال الدراسات الأدبية المتعلقة بالشعر العُماني .. !
والله الموفق ..

دكتور / سعد دعيبس

الإسكندرية في ١١ / ٧ / ١٩٩١ م

(١) ديوان أوى مسلم الهلالي — ص ٢٦٢ (طبعة وزارة التراث القومي سلطنة عُمان)

المبحث الأول

« تيار الغزل التراثي

يين

النهائي — والبارودي »

لعل أهم عامل وجهني إلى اختيار هذه الدراسة المقارنة لتيار الغزل التراثي بين هذين الشاعرين : « النبهاني »^(١) في سلطنة عمان ، و « البارودي »^(٢) في مصر : إحساسى بحاجة مجتمعاتنا العربية المعاصرة إلى إعادة النظر من جديد في أهمية القصيدة الغزلية ، في تهذيب وجدان الفرد ، والتسامي بمشاعره وانفعالاته ، وبناء مجتمع قائم على الحب والصفاء ، لا على الحقد والكراهية ، فنحن جميعا أبناء عالم محاصر بصحراء الصمت والوعب ، في عصر التجارب النووية ، عصر يعيش أبنائه أعصابا قلقة ، وقلوبا شاحبة مغتربة ، وأصابع تصنع الموت والكراهية للأطفال ، بدلا من الأزهار والألحان ، وترزع القنابل والأكفان في الحقول ، بدلا من الحب والسلام ... ! عالم لم يُعَدَّ يغنى للمحبة والصفاء ، بقدر ما يغنى للكراهية والحقد ، والرعب والدمار ... ! وما أشد حاجة هذا العالم الآن لمن يقدم له في هجير حربه الباردة ، وتفجيرات أحقادها النووية ، باقة حب ، وهمسة لقاء ... !

في هذه المعاني ... يكمن الدافع الأول الذي وجهني لاختيار موضوعي هذا ، وهناك عاملان آخران ، كان لهما تأثيرهما أيضا :

أما الأول فهو : إحساسى بأن قصيدة الغزل العربية المعاصرة ، لم تعد تحظى باهتمام الشعراء المعاصرين ، وإن ظفرت باهتمام بعضهم ، فكثيرا ماتت تحول لدى هذا البعض إلى مشجب يعلق عليه آراءه ، أو شعاراته المذهبية ، وقد وجدت في بعض ندوات الشعر التي أحضرها ، اتجاها غريبا يدل على عقم الذوق الأدبي ، وفساده لدى بعض ناشئة الشعراء ، إذ يتوهم هذا البعض أن التقديمية والواقعية تحتان على الشاعر أن ينأى بشعره عن الحب والغزل ، وأن يلتزم فقط بقضايا الكفاح السياسى والاجتماعى ، ولذلك كان بعض الشعراء يقدم أحيانا ما يشبه الاعتذار حين يهم بالقاء قصيدة غزلية ، كأنما هو يُقَدِّم على ذنب يحتاج إلى تبرير واستغفار^(٣) ، ووجدت — كما سبق أن أوضحت في

(١) سليمان بن سليمان النبهاني .

(٢) محمود سامى البارودي — وسيجيء التعريف بهذا الشاعر والشاعر السابق في حديثي عن « الملامح المشتركة بين شخصيتيهما » انظر ص ٤ — وما بعدها —

(٣) انظر : الغزل في الشعر العربى الحديث — للدكتور / سعد دعيس ، مقدمة الكتاب ، ص (أ) .

دراسة لى عن الشعر العربى الحديث^(١) — أن هؤلاء الشعراء يجهلون القيمة الأخلاقية البناءة للقصيدة الغزلية التى تنطلق بالإنسان من حصار مشكلاته التى تقيد به بأغلال التفاهات اليومية ، إلى عالم الجمال والصفاء ... من عالم المادة إلى ... إلى عالم الروح ... ! من عالم التناهى إلى عالم اللاتناهى .. إن هؤلاء الشعراء يجهلون ما يمكن أن تسهم به هذه القصيدة فى دعم العوامل الإيجابية فى حياة الفرد والمجتمع ، ولعلهم يجهلون أن ماضينا الحبيب يحفل بتراث رائع فى دراسات الحب ، وقصائد الغزل ، وأن تجربة الحب عند « عترة » و « أنى فراس » وأمثالهما ، قد ارتبطت بالفروسية النبيلة ، والمجد والعزة ، والتمرد على الذل والمهانة ، والكفاح فى سبيل الحرية .. ولعل الشاعر (عبد الرحمن شكرى) كان يعنى هؤلاء عندما قال :

« ولقد رأيتُ بعض القراء لا يفهم منزلة الغزل فى الشعر ، إن مزية الغزل سببها أن حب الجمال حب الحياة ، وكلما كان نصيب المرء من حب الجمال أوفر ، كان نصيبه من حب الحياة أعظم ، وحب الحياة والجمال من العوامل الاجتماعية القوية التى تزجى الأمم إلى التفوق والاستعلاء »^(٢) .

أما العامل الثانى :- فى اعتقادى — فهو أن قصيدة الغزل العربية يمكنها لو قُدمت تقديمًا حسنًا — أن تجتذب أرضاً جديدة للشعر العربى ، وجموعاً من الشباب الضائعين فى متاهة الإثارة المشبوهة ، وأغاني العاطفة الهابطة الرخيصة المبتذلة ... !

ولعل أبلغ دليل على أهمية قصيدة الغزل فى تراثنا العربى ، هو : اهتمام عدد من علماء الفقه الإسلامى بتقديم دراسات عنها ، ويتضح ذلك حين نعرف أن (ابن داود) أحد أئمة المذهب الظاهرى ، قد خصص فى كتابه « الزهرة » خمسين باباً فى الغزل ، وعن ابن داود ، أخذ (محمد بن حزم الأندلسى) هذه النزعة الوجدانية ، فألف كتابه « طوق الحمامة » ويصفه الدكتور / زكى مبارك قائلاً : « وهو كتاب تحدث عن « فن الحب » قبل أن يلتفت اليه

(١) المرجع السابق ، ص (ب)

(٢) مقدمة ديوان « رهر الربيع » (الجزء الرابع من ديوان عبد الرحمن شكرى) ص ٢٩٠

الأوريون — كما أخبرنا المسيو ماسينيون^(١) ويمكن أن نشير في هذا الصدد الى دراسات تراثية أخرى ، مثل « مصارع العشاق » لابن السراج و « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » لابن قيم الجوزية ، و « كتاب القيان » للجاحظ ، وغير ذلك من الدراسات التراثية التي تناولت هذه القضية .

ولقد لفت نظري حين قرأت ديوان الشعر العماني (سليمان بن سليمان النبهاني) أنه في شعره الغزلي ، المقترن في كثير من الأحيان بالفخر والحماسة ، يلتقي مع الشاعر المصري (محمود سامي البارودي) الى حد كبير وسأحاول في هذه الدراسة ، أن أتناول :

أولاً : الملامح المشتركة بين شخصية (النبهاني) وشخصية (البارودي) :

فعلى الرغم من الفاصل الزمني بينهما ، والذي يبلغ حوالي خمسة قرون حيث ولد « النبهاني » في منتصف القرن التاسع الهجري .^(٢) ... بينما ولد (البارودي عام ١٨٣٨ م)^(٣) .. على الرغم من هذا الفاصل الزمني الملحوظ ، فإننا نجد التشابه بينهما كبيراً الى حد يسمح بالدراسة المقارنة :

(١) أما الملمح الأول : فهو اعتزاز كل منهما بعراقة النسب ، وسطوة الملك ، وقوة الجاه والنفوذ ، فالنبهاني ينتمي إلى قبيلة « بني نهبان » الأزدية ، التي كان لها الملك والسيادة فترة طويلة في (عُمان) ويصفه المؤرخ (نور الدين السالمي) قائلاً :

« وبقي سليمان بن سليمان أياماً ملكاً بالقهر والجبرية ، متغلباً على مَنْ تحته بالسلطة والقهر »^(٤) وفي سيرته وشاعريته يقول الشاعر المؤرخ ، فضيلة الشيخ الفقيه الأديب ، محمد بن راشد بن عزيز الخصبي :

(١) العشاق الثلاثة — ص ٦ — وما بعدها ، ويقصد بقوله : « المسيو ماسينيون » المستشرق الفرنسي (ماسينيون) .

(٢) انظر المقدمة التي قدم بها الشاعر (سليمان خلف الخروصي) لديوان النبهاني .

(٣) انظر : « الأدب العربي المعاصر » للدكتور / شوقي ضيف ، ص ٨٣

(٤) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، ص ٣٧٨

وسليمانُ مِنْ ملوكِ بني نِهانَ ذو الافتخار والنخواتِ
اسمُهُ واحِدٌ واسمُ أيَّه ويلفظُ المظفرُ الجدياني^(١)
جاء في شعره بكل غريب مِنْ معاني بديعة ولُغات^(٢)
وما أكثر ما افتخر هذا الملك الشاعر بعراقه نسبه ، وعزة انتائه ، وسيادته
وسطوته ، ومن ذلك قوله :

أنا الملكُ الذي ساد البرايا وبِيت الفخر والحسب اللَّبابِ^(٣)
وقوله :

فهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ جَدِي وابْنُهُ أبو الخير قحطانُ أمانُ مروء
فهل مركزُ حاز الفخار كمرَكزي وهل منبَعُ ضم الفخر كمنبَعِي
وهل في البري قوم كقومي إذا اتتموا بأشرف بيت في يَمَانٍ ومَرْفَع
لنا حومة العز الذي طأطأت له رعوسُ رعوسِ الناسِ في كل مجمع
لنا تنتمي التيجانُ قد علمتْ به معدُّ ومرهوبُ الجنب الممنع^(٤)

وهذا الاعتزاز البالغ بكرم الأرومة ، وعراقه النسب ، واضح أيضاً في شعر
(البارودي) فقد كان أجداده ، يرقون بنسبه إلى حكام مصر المماليك ، وكان
الشاعر شديد الاعتداد بهذا النسب في شعره ، وفي كل أعماله ، فكان له أثر
قوي في جميع أدوار حياته^(٥) ، ومن ثم فهو يفتخر كثيراً بأبائه وأجداده قائلاً :
رجالٌ أولُو بأسٍ شديدٍ ونجدةٌ فقولُهُمُ قَوْلٌ ، وفعلُهُمُ فَعْلٌ
إذا غضبوا رَدُّوا إلى الأفق شَمْسُهُ وسال بدفاع القنا الحزنُ والسَّهْلُ^(٦)

(١) قوله : « واسم أيه » لسلامة الوزن هنا ، حوّل الشاعرُ همزة الوصل في « اسم » إلى همزة قطع ،
وقوله : يأتي « فيه تسهيل للهمزة ، والأصل « يأتي » .

(٢) « شقائق النعمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عمان » ج ٢ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩

(٣) ديوان النباهي — من قصيدة مطلقها : « يميناً بالصوارم والخراب وبالحليل المسومة العراب » — ص
١٠ من ديوانه .

(٤) من قصيدة مطلقها :
أبسى الجسمُ إلا أن يزال لدائسِهِ على العزِّ مالىسى والأذى بالتبج
ص ٤٨ ، من ديوانه

(٥) ديوان البارودي ج ١ ، ص ٦٥ — المقدمة — (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٦) انظر رأى الدكتور/ محمد حسنين هيكل في القصيدة التي منها هذان البيتان ، وذلك في حديثه عن
فخر البارودي في المقدمة التي قدم بها لديوان ذلك الشاعر ، ص ١٩ و ص ٢٠

(٢) الملمح الثاني : اشتراكهما في خوض المعارك الحربية ، وقيادة الجيوش ، فالنهباني — وهو أحد سلاطين بني نهبان ، يفخر في كثير من قصائده ، بحسن بلائه في الحرب ، وشجاعته الفائقة ، وفتكه بأعدائه ، وقيادته للجيش في المعارك الحربية التي خاضها ضد أعدائه ، وبخاصة ضد شقيقه (حسام) وفي ذلك يقول (١) : —

فَمَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي حَسَاماً الْوُكَّةَ تبلى معطاه لأهدى المذاهب
أَبَا نَاصِرٍ لَا تَجْهَلُ الْحَرْبَ إِنَّهَا لتقطع أسباب الإخاء والمناسب
أَلَمْ تُنْهَكِ الْحَرْبُ الَّتِي سَلَفَتْ لَنَا بجبل الحديد يا كريم المناسب
أَلَمْ أَتْرِكِ الْقِرْنَ الْكَمَى مَعْقِراً بخدي مأموراً غبار السلاهب (٢)

ولعل أهمية شعره في هذا المجال : أنها تقدم لدارس التاريخ العماني في هذه الفترة ، مصدراً من المصادر التي تضيء له ، طريق البحث في هذه الفترة التي كثر فيها الاقتتال الداخلي ، ومن ثم فإننا نعث في حماسياته على دليل يرشدنا إلى بعض المعارك التي دارت في هذه المرحلة ... أيام حكم بني نهبان ، هاهو ذا يذكر لنا بعض المعارك التي أبلى فيها بلاء حسنا :

وَبِالْقَعْرِ قَدْ صَالَقْتُ عَامِرَ صَلَقَةٍ تَذَاكُرُهَا الرَّاوُونَ فِي النَّدَوَاتِ (٣)
وَسَلَّ عَنْ ضِرَائِي يَوْمَ أَزْكَى حَاسِراً بسيفي وقد قرئت جميع حماتي
وَبِالْمَيْقَعِ الْمَعْرُوفِ طَاعَنْتُ عَامِراً لَدَى الطَّعْنِ حَتَّى غَارَ مِثْنُ قَتَاتِي (٤)

.....

ظَلَلْتُ أَذُودُ الْقَوْمَ بِالرَّحْمِ مُسْتَجِجٌ مِنْ اللَّهِ أَنْ أَمْضِيَ عَنِ الْخَفَرَاتِ (٥)

(١) من قصيدة مطلعها :

أَلَا فَاحْشِبَانِي الْيَوْمَ قُوْدَ النَّجَابِ فَنَهْرُ دَمْعٍ بَيْنَ هَاتِي الْمَلَاعِبِ
ص ٢٨ من ديوانه .

(٢) أى : تركت زنى الكمي معقراً بغبار الخيل السلاهب الطوال — انظر شرح محقق الديوان لهذا البيت — هامش — ص ٢٨

(٣) العقر : حلة ببلى ، صالقت : من الصلق يقال : صلق القوم صلقة : أوقع بهم وقعة شديدة .

(٤) الميعة : موضع معروف بعمان ، غار : تلف ، أى : تلف متن قناتي بكثرة الطعان — انظر شرح محقق الديوان : هامش ، ص ٥٢

(٥) مستح : الصواب أن يقول : مستحياً (بالنصب على الحال) وقد نبه الى هذا الخطأ أيضا محقق الديوان .

وكم وقعة مشهورة قد شهدتها يقصّر فيها المرء عن فعلائي
فلا جيشٌ للاعداء إلا هزمتُهُ ولا فطر إلا جُستُ بالفزوات: (١)

وعلى هذا المتوال من الفخر ، نجد (البارودي) يحذو حذو (النبهاني)
وينهج نهجه في الفخر ببطولاته ومعاركه ، بعد أن يتخرج في المدرسة الحربية
عام ١٨٨٤ م ، وترسم له شخصيته العسكرية ، وخياله الشاعر ، صورة
الحلم الذي كان يتمناه دائما ، صورة ملك متوج على عرش مصر ، كواحد
من آباءه الممالك ، فالنشأة الحربية اذا اجتمعت إلى الشعر والأدب ، تثير في
النفس روح الخيال ، والتطلع إلى أقصى مراتب المجد والعلا ، ومن هنا جاءت
آمال البارودي ، بعيدة الأفق ، لا تقف عند حد ، حتى بلغت التطلع إلى
العرش: (٢).

وطموحه العسكرى يبدو واضحا صارخا ، حين تراوده أحلام الملوك ،
حتى وهو بين يدي الحبيبة في ليلة من ليالى الوصل واللقاء :
وليلة بضياء الكأس لا معة أدركتُ باللهو فيها كل مقتراح
أحييتها بعد ما نام الخلى بها بغادة لو رأتها الشمس لم تلج
فلو تأملتني والكأس دائرة لخلتني ملكاً يحتال من مرج (٣)
(٣) المملح الثالث : من الملاح التي تشكل شخصيتهما — كما تبدو في
أشعارهما :—

اشتراكهما في الحرص على الملذات ، ومباهج الحياة ، ومجالس الطرب بما
فيها من هو وشراب ، وربما بدا هذا المملح غريباً ومثيراً للإحساس بالتناقض ،
إذ كيف تلتقى البطولات الحربية ، وخوض المعارك الحربية ، والشجاعة
والاستبسال في القتال ... !
كيف يلتقي كل أولئك بالسهرات الصاخبة ، والجري وراء الملذات ، والطرب
والغناء .. ؟

(١) هذه الأبيات من قصيدة مطلقا : أيا من لطيف وكيف العبرات ... الخ البيت — ص ٤٦ من
ديوانه .

(٢) مصر المجاهدة في العصر الحديث — الحلقة الرابعة — ص ٧٦ — عبد الرحمن الرافعي .

(٣) ديوان البارودي — ج ١ — ص ١٢٣

وليس عجيباً توزع حياة هذه الشخصيات الحربية المقاتلة التي تعيش دائماً في ظل أخطار الحرب ، وتوقع الموت في كل لحظة ... ليس عجيباً توزع هذه الشخصيات بين موجبات المجد والبطولة ، ودواعي المتعة والهوى ، وفي مثل هذه الحالة العجيبة يقول « العقاد » في كتابه : (شعراء مصر ويعتاتهم في الجليل الماضي) : « وتلك حال « خليقة » بأصحاب الطبيعة الحيوية التي تنقاد لدفعة الجسم ، وسورة اللحم والدم في ثورة الغضب والنخوة ، أو حال « خليقة » بالجندى المفطور على الجندية ، والشجاع المفعم بالنوازع القتية ، ومن ههنا الأخذ بالقرب الحاضر ، والبعد عن الاطالة والتعمق والاستقصاء ، فليس من اللازم اللازب لصاحبها أن يتغلغل في التفكير الى الدقائق والخفايا ، وأن يتوسع في الخيال والفلسفة ... ، وإنما اللازم اللازب له ، أن يكون عند دعوة الاقدام والفخار والقوة ، وعند دعوة المرح والغرام والفتوة ... ! » (١)

ولعل خير ما يصور هذه الحالة ، التي تمثل حالة نفسية ، هي أقرب إلى ازدواج الشخصية في شعر كل منهما ، قول النبهاني :

أَرْوَحُ وَأَغْدُو بَيْنَ دَنْ وَمُسْمِيحٍ	وَبَهْكَنَةِ مَعْشُوقَةِ الْحَرَكَاتِ (٢)
إِذَا مَاجَلَسْنَا فِي الْبَسَاتِينِ غَدُوَ	عَلَى فُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ عَطِطَاتٍ
فَكَمْ جَنَةِ فِي الْأَرْضِ دَانَ قَطُوفُهَا	بِهَا غُرَفَاتٌ أَيْمًا غُرَفَاتٍ
قَضِينَا بِهَا أَيَّامَنَا بِمُدَامَةٍ	لَدَى قَاصِرَاتِ الطَّرَفِ بَيْنَ سَقَاةٍ
وَحُورٍ كَأَمْثَالِ الدِّمَاءِ بَرَاغِزٍ	يُطَرَّبُنَا بِالنَّايِ وَالنِّغْمَاتِ (٣)

ولكنه في القصيدة. نفسها بعد أن قدم لنا صورة لمجلس اللهو والطرب ، والخمر والغناء ، يقدم لنا الجانب الآخر من شخصيته المولعة بالملذات ، حيث نجد الفارس المقاتل ، مسعر الحرب ، وبطل المعارك :

وَأَتَى وَإِنْ كُنْتُ الشَّرُوبَ لِمَسْعَرُ الْحُرُوبِ ... وَذُو فَضْلٍ وَذُو نُخْوَاتٍ (٤)

-
- (١) شعراء مصر ويعتاتهم في الجليل الماضي — ص ١٣٣ ، ص ١٣٤
- (٢) المسجع : المغنى ، والبهكنة : الضجة الناعمة (هذه الأبيات من قصيدة مطلعها : أيا من لطيف واكف العبرات — وقلب كتيب دائم الحشرات ص ٤٦ من ديوانه) .
- (٣) « كأمثال الدماء » صوابه كأمثال الدمى ، جمع دمية ، وقد نه محقق الديوان وشارحه إلى ذلك الخطأ و « براغز » جمع برغز — كجعفر وقنفذ — وهو : ولد المهابة .
- (٤) المرجع السابق — القصيدة نفسها ، ص ٤٨

وهو لا يحب من يحصى عليه عثراته وزلاته ، بل يحب من ينفى عينيه عن هذه العثرات :

أحب من الندمان كل مطرب وكل غضيض الطرف عن عثراتي (١)

وهو هنا يقترب من البارودي الذي لا يطيق الحلم والحلماء ، والوقار وأهله في مجالس اللهو والشراب ، وذلك إذ يقول :

ودعنى من ذكر الوقار فأنسى على سرف من بغضة الحلماء (٢)

وقد عاش البارودي أيضا كما عاش النبهاني ، حياة مترفة عندما ابتسم له الحظ ، فجعله في معية « إسماعيل » فأقام في حلوان ، وأرعى لشبابه العنان ، فعرف الشراب ومجالسه ، والغواني وفتنتهن ، والطرب والموسيقا والغناء ، وقال في هذه الأغراض جميعا ، فما تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها (٣) ، ومن ثم فإننا نجد في شعره ، قصائد يتغنى فيها بسعاده في ظل هذه الحياة ... حياة اللهو والملذات ، وليالى الطرب والغناء ، ومن ذلك قوله :

ألا رب يوم كان تاريسخ صبوة مضى .. غير إثر في الخيلة أو ذكر
عصيت به سلطان حلمي وقادى إلى اللهو شيطان الخلاعة والسكر (٤)

وحتى ... وهو في أيام الشيخوخة ... والعجز ... لم يتخل عن حبه لهذه الملذات .. إنه في قصيدة من قصائده التي يتحسر فيها على ذكريات الشباب ، يصرخ صرخة حزن والتياح ، إذ يقول (٥) :

وكيف تلد بعد الشيب نفسي وفي اللذات إن سنحت عذابي
أصد عن النعيم صدود عجز وأظهر سلوة والقلب صابى

ثم يتبع هذه الصرخة بصرخة أخرى ... متحسرا على الشباب :

فيا لك من زمان عشث فيه نديم الراح والهيئ الكعاب
تحول ظله عنى وأذكرى بقلبي لوعة مثل الشهاب (٦)

(١) القصيدة نفسها — ص ٤٨ من ديوانه

(٢) ديوان البارودي ج ٢ ، ص ٧٠ من قصيدة مطلعها :

ألا عاظمها بنت كرم تزوجت على نعمات السود باسن سماء

(٣) ديوان البارودي — مقدمة الدكتور هيكل ، ص ١٨

(٤) المرجع السابق ج ٢ ، ص ٧

(٥) المرجع السابق ج ٢ ، ص ٢٦

(٦) المرجع السابق ، ص ٥٣

(٤) أما الملمح الرابع والأخير الذى تلتقى فيه هاتان الشخصيتان ، فهو :
سطحية فهمهما للتدين ، فالنهبانى فى إحدى قصائده — مثلاً — يفتخر بأنه
حامى الدين ، وأن حياة الدين والعلم والتقوى رهن بحياته — على حد قوله :
تُناطُ حياةُ الدِّينِ والعِلْمِ والتَّقَى وَعِزُّ عَمَّانٍ كُلِّها بِحَيَاتِي^(١)

ويفتخر أيضاً بأن مجالسه مجالس علم وتقوى ، تتحدث عن فضل النبى عليه
الصلاة والسلام وصحبه والتابعين أهل البركات ... هذا جميل ... ولكنه
عقب ذلك مباشرة ، يصور أثر الراح فى نفوسهم وماتثيره من مرح وبهجة ..
هذا مانراه حين نقرأ هذه الآيات له يصف ندمانه ومجالسهم^(٢):

تَحَدَّثُ عَنْ فَضْلِ النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ وَعَنْ تَابِعِيهِمْ مَعَشِرِ الْبَرَكَاتِ
وَيَحْكُونَ عَنْ قَيْسٍ وَزَيْدٍ وَدَغْفَلٍ أَحَادِيثَ صَدِيقٍ تَذْهَبُ الْكُرْبَاتِ^(٣)
وَقَدْ بَعَثَ الرَّاحُ الْعَتِيقُ سُرُورَهُمْ فَأَنْفُسُهُمْ مَرْتاحَةٌ بِهَجَاتِ

ولعل من الملامح التى تدل على ميله — نادراً — الى الظرف والدعابة ، أنه
فى إحدى قصائده ، يتوجه إلى المولى سبحانه وتعالى بالدعاء ، مبتهلاً ضارعا ،
ليفرج كربته ، فيظن المرء أنه أمام محنة شديدة تجعل الأرض على سعتها تضيق
به ، وإذا بنا بعد ذلك نكتشف أن ابتياله الى الله ... لا مِنْ أَجْلِ مَانظَن ...
وإنما ليبلغه مايرتجى فى الهوى ، وذلك حين يقول^(٤):

سَأَلْتُ ذَاتَ الْعَرْشِ الَّذِي لَمْ يُخْرِجْ فَارِجَ كُلِّ كُرْبَةٍ لَمْ تُفَرِّجْ^(٥)
أَنْ يُبَلِّغُنِي فِي الْهُوَى مَا ارْتَجَى مِنْ لَثَمِ خَدِّ (رَايَةَ) الْمُضَرِّجِ^(٦)
وَرَشِيفِ ظَلَمِ ثَغَرِهَا الْمَفْلِجِ ... الخ

(١) ديوان النهبانى ، ص ٥٣ من قصيدة مطلعها :

أَيَا مِنْ لَطْرِيفٍ وَأكْثِفِ السَّعَرَاتِ وَقَسْبِ كَهْسِبِ دَائِمِ الْخَسَرَاتِ

(٢)

(٣) قيس : قيس بن الملوخ و (زيد) لعله — كما قال محقق الديوان : الامام جابر بن زيد ، و
(دغفل) يعنى : دغفل النسأة ، وهو ابن حنظلة الشيباني ، (انظر : هامش ص ٤٨ من
الديوان) .

(٤) المرجع السابق — من قصيدة مطلعها :

« رَايَةَ .. يَا ذَاتَ الْجَبَا وَالْهُودِجِ وَرُبَّةَ الطَّرِيقِ وَذَاتَ الدَّمْلِجِ »
ص ٥٨ من الديوان .

(٥) لم يخرج : لم يوقع فى الحرج .

(٦) المضرج : أى : حدها الوردى ، كأنها تُحَضَّتْ بالدم

ترى ... هل تُوحى هذه الصور ، بموقف ازدواجى تعانى فيه شخصيته ،
مايشبه تمزقا بين مُوجِبَاتِ المَجْدِ والعُلا من جهة ، ودواعى اللُهو والمتعة من
جهة أخرى ؟ تمزقا بين السيف والوردة ، والواقع والحُلم ... !
أم تراها توحى بروح فكاهية ساخرة تكمن وراء جهامته الظاهرة ... روح
الشاعر الانسان المطلة من وراء لظى الحرب المحاصرة بصلصلة السيوف ،
وغبار المعارك ... ؟

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى شبيهه (البارودى) سنجد سطحيةً التدين بما
توحيه أيضا من ازدواجية الموقف الحياتى ، وروح الدعابة الساخرة ، فلا مانع
عند البارودى أيضا من أن يذهب للصلاة عند سماعه الأذان ، ثم يخرج بعد
ذلك مباشرة متوجهاً إلى مجلس شراب وهو ، مما دام قد أدّى واجب الدين —
كما يتصور — فلا جناح عليه إذا ذهب عقب أدائه الصلاة إلى مراتع المتعة
أولمَّا ذُنُتْ ... إلى متاهات اللُهو والقصف ... بين الجزيرة والنهر ، وذلك إذ
يقول (١) :

فأَحْيَا الْوَرَى مِنْ بَعْدِ طَى إِلَى نُشِيرِ	وَنَادَى الْمُنَادَى لِلصَّلَاةِ بِسُحْرَةٍ
إِلَى الْقَصْفِ مَا يَبْنِي الْجَزِيرَةَ وَالنَّهْرَ	فَبَادِرْ لِمِيقَاتِ الصَّلَاةِ وَمَلْ بِنَا
فَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْخَلَاعَةِ مِنْ وَزَرٍ	إِذَا مَا قَضَيْنَا وَاجِبَ الدِّينِ حَقُّهُ
مَضَى غَيْرَ لِأَثَرٍ فِي الْخَيْلَةِ أَوْ ذِكْرِ	إِلَّا رَبُّ يَوْمٍ كَانَ تَارِيخُ صَبْرِهِ
إِلَى اللُّهُو شَيْطَانُ الْخَلَاعَةِ وَالسُّكْرِ ... !	عَصِيَتْ بِهِ سُلْطَانُ حِلْمِي وَقَادَنِ

ولنستمع إليه مرة أخرى يقول فى حديثه عن مجلس شراب (٢) :

وَارْتَجِعْ إِلَى الدَّوْرِ مِنْ بَدْءِ عَلَى النَّدْمَاءِ	فَهَاتِ وَخُذْ وَاشْرَبْ وَدِرْ وَاسْقِ
عَلَى سَرَفٍ مِنْ يَغْضَةِ الْحُلَمَاءِ .. !	وَدَعْنِي مِنْ ذِكْرِ الْوَقَارِ فَإِنِّي
وَذَا الدَّهْرُ فِينَا مُوَلِّعٌ بِرِمَاءِ .. !	فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا سَاعَةٌ سَوْفَ تَنْقُضِي

وبقى علينا بعد ذلك أن نشير إلى أن هذا الموقف الانشطاري ، أو
الازدواجى من الدين ، موقف — كما قلت — يدل على سطحية أو سذاجة فى
فهم حقيقة الدين ، ذلك لأن الإسلام ليس مجرد شعائر وعبادات ، وصلاة

(١) ديوان البارودى ح ٢ ، ص ٧

(٢) المرجع السابق ح ١ — ص ٢٦ — من قصيدة مطلعها

أَلَا عَاطِيهِمْ ————— بِثُ كَرَّمَ تَزَوَّجَتْ عَلَى بَعَابِ الْعُودِ بَائِسِ سَمَاءِ

وصيام ، ولكنه أيضا موقف حياتي ينطلق فيه المسلم في حياته اليومية ، في آلامه وأحزانه ، ومتعته وملذاته ، وصلاته وصيامه ، من موقف موحد لا ازدواجية فيه ولا انشطار ، يهتدى فيه بشريعة الإسلام .. وهدى القرآن .. فليس هناك في الإسلام انفصالية بين المسجد والحياة ... وقد توجد هذه الانفصالية في شرائع أخرى ... لكنها قطعاً غير موجودة في الإسلام .. !

(ظواهر فنية مشتركة في غزلهما)

يرى بعض النقاد — أو كثير منهم — أن غَزَلَ (النبهاني) كله ، غزل حسي ، يصور الجانب الحسي المثير في جسم المرأة ، كما يصور العلاقة بين المحبوبين تصويراً مادياً مغرقاً في ماديته ، ويبدو الشاعر فيه أشبه (بدون جوان) يجرى وراء أكثر من امرأة ، ومن ثم تتعدد في مثل هذا اللون من الغزل ، أسماء المحبوبات ، ولا يقتصر الشاعر على امرأة واحدة ، كما نرى في الغزل العذري — ويرى هذا الفريق من النقاد أن ذلك يرجع إلى تأثيرات تراثية قوية في شعر النبهاني ، ولعل هذه التأثيرات تبدو في أقوى صورها في غزليات أمير شعراء العصر الجاهلي (امرئ القيس) وقد أشار إلى هذه الظاهرة شارح ومحقق ديوان (النبهاني) وهو الشاعر الأستاذ سليمان بن خلف الخروصي ، حيث يرى أنه أكثر مقلد لامرئ القيس ، وأن أثر الاقتباس اللفظي والمعنوي واضح في شعره ، مما يدل على أنه ملتزم بشعر امرئ القيس ، متأثر به حافظ لشعره ^(١) .

كما أشار إلى هذه الظاهرة الفنية نقاد وعلماء آخرون — وعلى سبيل المثال نشير أيضا إلى ما كتبه أحدهم ، وهو الدكتور علي عبد الخالق في كتابه (الشعر العماني) حيث يرى أن شعر ذلك الشاعر يمثل اتجاه النزعة التقليدية في الغزل والمجون ووصف مجالس الشراب ، وأن شعره يدل على غرامه بطريقة (امرئ القيس) ^(٢) .

ومن السهل أن نجد أمثلة لهذه الظاهرة في شعر النبهاني الذي عارض به امرأ القيس كما عارض شعراء آخرون من مختلف العصور ، هذه الظاهرة

(١) انظر المقدمة التي قدم بها الأستاذ سليمان خلف الخروصي لديوان النبهاني — ص ٦٠ وما بعدها

(٢) الشعر العماني — مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية ، ص ٣١

نفسها (أعنى ظاهرة الغزل الحسى فى شعر النبهانى) تتكرر مرة أخرى فى شعر (البارودى) ففى جانب من غزلياته يبدو هذا الطابع الحسى المادى ، القائم على التصوير المثير لمفاتيح المرأة الحسية ، وتعدد المحبوبات ، ولعل اكثاره من ذكر مغامراته التعددية فى هذه الغزليات الحسية ، كان دافعا لمقدم ديوانه ، وهو الدكتور محمد حسين هيكل ، لاثامه بانعدام الصدق الفنى فى غزله ، وأنه ماهو إلا مقلد للأقدمين فى هذا المجال^(١) .

ولكننى فى هذه الدراسة ، لا أريد أن أتناول هذا التيار الحسى فى غزل الشعاعين ، وإنما أريد أن أشير إلى تيار آخر فى غزلها ، ألا وهو التيار العذرى الذى لم ينل اهتماما من النقاد الذين تناولوها وقد رأيت ماكتب عنهما ، يصنف قصائدهما الغزلية فى إطار الغزل الحسى فقط ، ولايشير إلى تيار آخر مائل فى غزلها ، ألا وهو : تيار الغزل العذرى ، وان كان هذا الأخير أقل ظهورا من التيار الأول ، ولكنه موجود فى عدد من القصائد الرائعة فى شعرهما ، وسأقصر حديثى عن ذلك التيار :— وليس من الصعب أن نجد أمثلة لهذا التيار فى شعر (النبهانى) و (البارودى) ففى شعرهما أمثلة عديدة تؤكد وجود تيار الغزل العذرى بظواهره النفسية والفنية المتميزة :

فالنبهانى يصرح بحبه العذرى حين يقول فى قصيدة من قصائده^(٢) :
دعانى الهوى العذرى بالقسم موهناً لَبْرِقْ تَنَشَّتْ مِنْ عَمَانٍ سَحَابُةً^(٣)
فأرقنى والخالئى البال هاجعاً فَبَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ أَرَابُةً^(٤)
ومرة أخرى نراه يصرح بأن هواه هوى عذرى ، وذلك اذ يقول فى قصيدة أخرى^(٥) :

رُفِعَتْ عَلَى العشاق رايتى التى كُنْفَتْ بعذرى الهوى المتجرى
أُعْطِيتْ مَقْوَدَى الْغَرَامِ ولم أكنْ أُعْطِى الْغَرَامَ قُبَيْلَ رَايَةِ مَقْوَدَى
قد يطفئ الماء السعيرَ ومهجنى أَبْدَأُ بِفَيْضٍ مدامعى لم تُبْرِدِ .. !

(١) انظر هذه المقدمة ص ١٨ ، ١٩ من ديوان البارودى .

(٢) ديوان النبهانى — ص ٣٥

(٣) هذا البيت هو مطلع قصيدة بعنوان : « وقال أيضا فى سفره الى هرمور بفارس » .

(٤) القسم : جزيرة باليخ العربى كانت تسمى قديما كلوان ، تشت : يريد : تشأت ، أى : نشأت ، سهل الهمة ، فصارت : تشأت (انظرها هامش ص ٣٥)

(٥) من قصيدة مطلعها :

بادارُ رايَةَ فى صَوَى والأخْرَدِ هل فى عراصيك معد رايَةَ مِنْ دَدِ

ومرة ثالثة يصرح بهذا الهوى العذرى ، فى قوله متحدثا عن « راية » التى استأثر اسمها بكثير من قصائده الغزلية :

وَبُحِثْ بِسِرِّى فى الغرام وعادنى هوى عُذْرَوِيٍّ فَأَوْحَيْتُكَ السَّيْرَ (١)

إن من الخطأ الكبير محاولة إطلاق أحكام تعميمية فى مجال النقد الأدبى ، ومحاولة تصنيف شاعر فى اتجاه واحد يحاصر فنه ، فالفنون لا تعرف الخط المستقيم دائما ، والشاعر أو الفنان ... كلاهما كالطبيعة .. كالنهر يلتوى بين الأدغال .. ! وينثنى هنا وهناك .. تارة ... ، ويستقيم تارة أخرى .. ! والنبهانى دليل صدق على مانقول .. فمن الخطأ أن نقول : إن (النبهانى) أغرق فنه الشعرى فى الماديات الحسية لغزليات امرئ القيس .. كَلَّا بَلْ إِنَّ لَهُ قصائد رائعة فى الغزل العذرى ، وهى قصائد تفيض بالحزن والألم ، والدموع والبكاء ، والذل والخضوع ، والطلليات الباكية ، والعفة والبراءة .. ! وهذه السمات هى أهم خصائص الغزل العذرى الذى يدور حول المعانى الآتية :—

(أ) التمتع بالألم وتعذيب النفس ، وفى ذلك يقول الدكتور صادق جلال العظم فى دراسة له عن الغزل العذرى (٢) :— « ولا تخلو ظاهرة الحب العذرى من خصائص (السادوماسوكية) من حيث أنه يمىلا ميلا شديدا الى تعذيب النفس والغير (أى الحبيب) بدون مبرر واضح ، أو غاية محددة ، وإنما لمجرد الاستمتاع والتلذذ بالألم والعذاب ، باعتبارهما جزءا لا يتجزأ من عنف التجربة الغرامية العذرية ، وشدة انفعالاتها » .

(ب) الحديث عن الموت والجنون : فالعاشق العذرى يتوق إلى الموت ، ويحن إليه باعتباره الحائل المطلق بينه وبين المعشوقة ، ولرغبته فى الألم والشقاء اللذين يرافقان فى كثير من الأحيان أعمال التضحية والعطاء (٣) .

(١) من قصيدة مطلقها : « لَرَايَةٌ وَحْدَهُ يَكْسِفُ الشَّمْسَ وَالدَّرَا وَلِذُنْ قَوَامٍ يُخَجِّلُ الصَّعْدَةَ السَّمَرَا » ص ١٢٠ من ديوانه .

(٢) فى الحب والعذرى ص ١٠٤

(٣) راجع : فى الحب والعذرى ص ١٠٤

(ج) التدفق العاطفى الحزين الذى يمنح ألفاظ العُذريّين رقة وعده .
ويحوّله إلى ما يشبه الضراعة والمناحاة .

(د) التوحيد — فمدرسة الغزل العذرى ، لا تؤمن بالتعدد الذى يجده
عند مدرسة عمر بن أبى ربيعة ولهذا اشتهر قيس بلىلى ، وعروة بعفراء ، وجميل
ببثينة ، وكثير بعزة^(١) .

(هـ) العفة والبعد عن الابتذال الحسى فى تصوير تجربة الحب ، والدكتور
زكى مبارك يرى أن فخر العذريين بالعفة ، إنما هو علامة قوة عارمة ، تمثل
السيطرة على أهواء النفس^(٢) .

فإلى أى مدى تنعكس هذه الخصائص فى عرن (النبهانى) ؟
نستطيع أن نقول : إن الشواهد والأمثلة الدالة على وجود هذه الخصائص فى
شعره كثيرة ، منها قوله متحدثاً عن عذابه وأحزانه ، فى حب (راية)^(٣)
فما عاشقاً مَنْ لا يريق دموعه إذا رار مِنْ بُعْدِ ديارِ الحبايبِ
وما الحُب إلا نظرة إن تمكّنْ من العقلِ أَمْسَى فى مَهَاوِ المعاطيبِ
وقوله أيضاً^(٤) :

أَيَا مَنْ لَطِيفٍ وَكَيْفِ الْعِبَرَاتِ	وَقَلْبٍ كَثِيبٍ دَائِمِ الْخَسِرَاتِ
وإن لآجِ بَرَقٍ أَوْ تَرْتَّمِ طَائِرٌ	تَصْعَدُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى زَفَرَاتِ ^(٥)
صَبَابَةٌ حَزِنْ تَعْتَرِينِى وَلَوْ عَةً	إِذَا عَادَى عَيْدٌ إِلَى صَبَوَاتِى ^(٦)
فَلِلَّهِ عَيْنَا مُسْتَشِيبٍ شَتَوْنَهَا	مَأْقِيهِمَا يَسْفُحْنَ مِنْهُمَرَاتِ ^(٧)

(١) شاعر الغزل — ص ٣٧ — للعقاد

(٢) العشاق الثلاثة — للدكتور زكى مبارك — ص ٢٤ — وانظر : الغزل فى الشعر العربى الحديث —
دكتور سعد دعييس — ص ٢٢ وما بعدها .

(٣) ص ٢٦ من ديوان النبهانى — من قصيدة مطلعها

أَلَا فَاحْسِنَاىَ الْيَوْمَ قُوَّةَ النِّجَابِ فَتَهْرَقْ دُمْعَايَ بَيْنَ مَاتَى الْمَلَاعِبِ

(٤) ص ٤٦ من الديوان — والبيت الأول مطلع القصيدة

(٥) تصعدن : الضمير يعود إلى الخسرات فى البيت الأول

(٦) عادى عيّد : عاداه الشوق والحنين ، والعيد ماعود الاسد من شوق أو هم (انظر هامش ص
٤٦)

(٧) مستيب . أى طالب الثواب من شتو عييه أى محب . هم الدمعية (عينا مستيب عينا عاسو
مستيب)

ولنتأمل ... هذا المتجبر الفاتك بأعدائه ، وهو يذلل ويتوسل ، ويخضع ويرق أمام سطوة الجمال ، حين يصور خضوعه ، « لرأية » ، وتوسله لها باكياً^(١) :

والله لو حلَّ الغرامُ بجلْمـِـدٍ	لتصدعتْ فلقاً قلوبُ الجلمـِـدِ
رُفعتْ على العشاقِ رايتيَ التي	كُنِفتْ بعذريَّ الهوى المتجرِـدِ
أعطيتْ مقوِديَّ الغرامِ ولم أكنْ	أعطى الغرامُ قُيْلَ رأيةٍ مقوِدي
مَنْ لى يرأيةً أنْ تُرقَّ لعاشقٍ	حلف الصبابة ساهراً لم يرقـِـدِ
ولعل رأيةً أنْ تذكُرَ ما مضى	فتجودَ لى بتعطف وتودد
ماضٍ رأيةً لو رنتْ لى لحظة	مما أكابد من غرامٍ مُكـِـمـِـدِ
يارائى .. هل لكِ فى وصالٍ متيمٍ	ذنبٌ اذا رقد الورى لم يرقـِـدِ
فهواك سفة فيه كلُّ مُسـَـفٍّ	رأياً .. وفند فيه كلُّ مُفـَـنـِـدِ

وما أكثر هذه البكائيات المتوسلة فى غزله العذرى ... ولكن العجيب أيضاً أن نلمح هنا الظاهرة الازدواجية التى لمناها قبل ذلك فى موطن أخرى ، تتكرر مرة أخرى فى غزله العذرى ، حين نراه يحرص فى معظم هذه العذريات على اقتران بكائياته وتوسلاته ، بالفخر الشاخب بسطوته وجبروته ، فهو يقدم لنا — مثلاً — عقب الأبيات السابقة ، فخراً بقوته ونفوذه ، وعراقه نسبه ، وروعة أمجاده ، حين يقول^(٢) :

فتصفحنى الأملاك هل مِنْ مالِكٍ	غبرى تفرَّد بالعلا والسوددِ
أنا سيد الأملاك بعد مظفرٍ	جئدى .. وبعد أنى الهمام الأجدِ
الأفخر ابن الأفخرين من الورى	والسيد ابن السيد ابن السيد
عزاً يقلق كل راسٍ راسٍ	ويذل كل قريع قوم أصيد ^(٣)
من معشر سنث لهم أبأؤهم	فعل الجميل وتلك مالم يُحمـِـد ^(٤)

(١) ص ٨٧ من الديوان ، من قصيدة مطلعها : يادار رأية فى صوى والأجرد .. الخ البيت
(٢) المرجع السابق ص ٨٧ ، ٨٨ وقد سبق ذكر مطلع القصيدة التى اخترنا منها هذه الأبيات
(٣) قريع القوم : سيدهم
(٤) وانظر هذا المزج بين الظاهرة العذرية ، وظاهرة الفخر ، فى قصائد أخرى له ص ٢٢ ، ٢٨ ، ٣٨ ، ٤١ من ديوانه

وهكذا نرى قصيدة الغزل العذرى عنده ، تتخذ لها منهجا يعتمد على اقتران الغزل بالفخر ، وهو منهج تراثي نراه واضحا في الغزليات العذرية عند (عنتره) في العصر الجاهلي ، وعند (أبي فراس) في العصر العباسي ، حيث نلمح بكائيات الشاعر المتيّم ، وأحزانه الفياضة ، وتوسله وخضوعه ، نجد كل أولئك ، مقترنا بالفخر بالبطولات والمعارك ، والأبجاد والقوة ، انه غزل الفروسية النبيلة ، وفي تحليل هذه الفروسية ، يقول الدكتور محمد غنيمي هلال^(١) :

« وفي أدب الفروسية هذا نجد البأس والجلد والمثابرة ، والحمية ، متجاوزة مع الدماثة والرفقة والخضوع والذلة لسلطان العاطفة ، والجانبيان لا يتناقضان في نفس الفارس ، ولكن يتكاملان ، وهذا هو الأعم الأغلب في روح الفروسية في الآداب العالمية » .

وكأنّ الشاعر الفارس حين يقرن الفخر بالغزل ، يقدم بين يدي المرأة ، وثائق أخلاقية تدل على جدارته بحبها ، وبراهين من الواقع والقيم والمبادئ ، تزيد من قيمته المعنوية أمام من يتمنى توثيق علاقته الروحية بها .

ومرة أخرى نعود إلى شبيهه (النبهاني) ورفيقه في هذه الدراسة ، وهو (البارودي) فماذا نجد عنده من الغزل العذرى ؟

لقد عاش (البارودي) في شبابه حياةً مترفة عندما ابتسم له الحظ ، فجعله في معية « الخديوي اسماعيل » فأقام في (حلوان) وأرخص لشبابه العنان ، فعرف الشراب ومجالسه ، والغواني وفتنتهن ، والطرب والموسيقى والغناء ، وقال في هذه الأغراض جميعا ، فما تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها^(٢) .

ومن هنا .. يمكن أن ندرك سر غزله الحسي المتعدد ، الذي تكثر مغامراته بين روضة المقياس ، وحلوان ، والجيزة ، وشبرا ، ممّا يجعله أحيانا يبدو في صورة (دون جوان) عصر البعث ، وقد ساعد على إغراقه في الحب الحسي بالإضافة إلى حياته المترفة ، سطحية فهمه للتدين — كما أوضحنا سابقا — .

(١) المدخل الى النقد الأدبي الحديث ، ص ٢٣

(٢) ديوان البارودي ج ١ — تقديم الدكتور محمد حبيب هيكال للديوان ص ١٨

وأغلب الظن أن ثقافته التراثية العميقة ، وهي تقترب كثيراً من الثقافة التراثية العميقة عند (النبهاني) قد لَوَّث غزله الحسِّي بظلال من القديم ، فجاءت لوحاته الغزلية تضم فتيات من المقياس وحلوان وشبرا ، يتخطرن في ثياب ليل وعفراء ولبنى وبشينة ، ويتجملن بحلى الماضي ، وتناهى خصورهن عن أردافهن ... الخ تلك الصورة الجمالية التي برزت فيها الفتاة العربية في التراث العربي^(١) .

وهذا المفهوم الحسِّي للغزل يبدو كثيراً في غزل (البارودي) وهو مفهوم — كما سبق أن أشرنا — يقوم على التعددية لا الواحدية ، ويسمح للشاعر أن ينتقل في غزلياته بين امرأة وأخرى ، ومن ثم رأينا بعض النقاد يشكِّك في صدق عاطفة (البارودي) في الغزل ، ويَرى أنه مجرد تقليد للقدماء ، ففى كثير من قصائده أيام الشباب ، نرى^{١٦} أول هذه الصورة : « خمر وغزل وفخر » ، ويقول الدكتور محمد حسين « يكل في تقديمه لديوان البارودي ، متحدثاً عن ذلك^(٢) :

« ولا ريب في أنه كان يحسُّ مايقوله في هذه الأغراض جميعاً ، لكن الذى لا ريب فيه أن الحب لم يفتن يوماً لُبّه ، وأن الخمر لم تذهب يوماً بعقله ، فأما الفخر فكان يعبر عن أمانيه الخفية ، وآماله المكظومة .. !

ولعل الشاعر نفسه قد قدم هؤلاء النقاد دليلاً على صدق رأيهم ، حين صوّر في شعر شبابه ، تعدد مجالس لهوه ، وسهراته الصاخبة ، وأشار في غزلياته الى غرامه بأكثر من فتاة ، والتعدد في هذا المجال حليف الحسِّية المادية العابرة ، بينما الوحداية قرينة العاطفة الصادقة ... ان الفيلسوف الشاعر (ابن حزم) يقرر أن كل من يزعم أنه يحب أنثى ، ويعشق شخصين متغايرين ، فقد اختلطت عليه المحبة بالشهوة ، والشهوة لاتسمى حبا على التحقيق ، بل على المجاز فقط^(٣) .

(١) انظر : الغزل في الشعر العربي الحديث ، ص ١٠٢ ، ١٠٣

(٢) ديوان البارودي — المقدمة — ص ١٩ ومابعد

(٣) راجع كتاب « ابن حزم الأندلسى » ، ص ٢٤٢ للدكتور / زكريا ابراهيم .

ولعلنا نجدُ رداً على ابن حزم يبرر ظاهرة التعدد ، حين نقرأ مايقوله (مولير) في المشهد الثاني من الفصل الأول ، من مسرحية (دون جوان) ... يقول (مولير)^(١) .

« إن الدونجوان لا يؤمن باستمرار حبه لواحدة ، لأن ذلك سيقتل فيه منذ الشباب ، نزعة التطلع إلى أنواع عديدة من الجمال ، والوفاء للمحبة . تارة للنفس ، واقتان (الدونجوان) بحبيبة ما ، لا يلغى حقه في الاقتان بأخريات وأخريات ، لأن تقيده بأول حب ، معناه : رفض العالم ، وعدم النظر الى أى انسان آخر في الدنيا ، معناه أن يدفن نفسه إلى الأبد في حب واحد ، يقتل فيه منذ الشباب كل ميل في الاستجابة لأنواع الجمال المختلفة التى يراها ، والثبات على حب واحد لا يناسب الا البسطاء والحمقى ، لأن من حق كل امرأة جميلة أن تفتننا .. » .

على أن هذا المفهوم الحسى المتعدد لم يسيطر دائما على غزل (البارودى) ففي بعض قصائده الغزلية ، نراه يعبر عن حبه تعبيرا روحيا أقرب الى العذرية ، والبارودى نفسه يربط هذه التجربة العاطفية بالأخلاق النبيلة العفيفة ، حين يقول^(٢) :

والعشقُ مَكْرُمَةٌ إذ عَفَّ الفتى عَمَّا يهيم به الغيوى الأصور^(٣)
يقوى به قلبُ الجبان ويرعوى طمعُ الخريص .. ويخضع المتكبرُ

ويجدر بنا هنا أن نشير الى رأى ناقد معاصر ، يعارض رأى بعض النقاد الذين يرون انعدام الصدق فى غزل (البارودى) وهذا الناقد هو الدكتور على الحديدى ، الذى يعارض دعوى سطحية هذه العاطفة عند (البارودى) وينفى أنه كان مقلداً فى غزله ، ويرى أنه كان فى أكثر حبه وغزله عفيفا ، ولذلك فهو يعارض رأى الدكتور هيكل السابق الذى ينفى الحب الصادق عن البارودى ، وقد برهن الدكتور على الحديدى على بطلان ذلك الرأى ، بأن

(١) مسرحية « دون جوان » تصرف — نقلا عن كتاب « فى الحب العذرى » ص ٤٦ ، للدكتور / صادق جلال العظم .

(٢) ديوان البارودى ج ٢ ، ص ٢٠

(٣) الأصور . صفة من الصور (بوزن الفرج) وهو الميل ، والمراد بالأصور . المنحرف عن الهدى والرشاد .

حياة البارودى كانت مليئة بدواعى الغرام فى قصور الخديوى اسماعيل ، كما أن الشاعر نفسه ، صرح فى مقدمة ديوانه بأنه أحب^(١) .

ومن قصائده التى يبدو فيها غزله العذرى : قصيدة مطلعها :
أبى الشوق إلا أن يَجِنَّ ضَمِيرُ وَكُلُّ مَشُوقٍ بِالْحَنِينِ جَدِيرُ^(٢)
وكما فى قصيدته التى مطلعها :

صلةُ الخيالِ على البَعَادِ لقاءُ لو كان يَمْلِكُ عَيْنِي الإغفاء^(٣)

إن البارودى فى هذه القصيدة يعارض قصيدة (المتنبى) التى مطلعها :
أَمِنْ زِدْيَارِكِ فى الدجى الرقباءُ إِذْ حِثَّ كُنْتُ مِنَ الظَّلامِ ضِيَاءُ^(٤)

والمتنبى فى هذه القصيدة يمدح الكاتب (أباً على الأوراجى) ولكن (البارودى) يبدأ قصيدته بالنسيب ، بعيداً عن فخر المتنبى ومدحه ، ويستمر فى هذا النسيب الى آخر بيت ، ويتدفق فى غزله العذرى الحزين ، فى رقةٍ وانسيابٍ بعيدَيْن عن تكلف المتنبى وتعقيد المعنى ، فبينما يقول (المتنبى)
معبراً عن عذابه فى الحب :

أَسْفَى عَلَى أَسْفَى الذى دَهَيْتَنِي عَنْ عِلْمِهِ فِيهِ عَلَى خَفَاءُ
وَشَكَيْتَنِي فَقَدْ السَّقَامُ لَأَنَّهُ قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِي أَعْضَاءُ

بينما يقول المتنبى ذلك ، نجد البارودى بعاطفيته المتدفقة ، يعبر عن المعنى نفسه ، فيقول :

أَغْرَيْتَ لِحْظَكَ بِالْفُؤَادِ فَشَقَّهُ وَمِنَ الْعَيُونِ عَلَى النَفْسِ بَلَاءُ
هِيَ نَظْرَةٌ فَاْمُنُّنْ عَلَى بِأَخْتِهَا فَالْخَمْرُ مِنَ أَلَمِ الْخُمَارِ شَفَاءُ
أَنَا مِنْكَ مَطْوِيُّ الْفُؤَادِ عَلَى جَوَى لَوْلَا الدَّمُوعُ ذَكَتْ بِهِ الْخُوبَاءُ..!
لَا أَنْتَ تَرْحَمْنِي .. وَلَانَارُ الْهَوَى تَحْبُسُو ، وَلَا لِلنَفْسِ عَنْكَ عَزَاءُ
فَانْظُرْ إِلَى تَجِدْ خَيَالَةَ صُورَةٍ لَمْ يَبْقَ فِيهَا لِلْحَيَاةِ ذَمَاءُ

(١) راجع : محمود سامى البارودى — ص ٦٦ — ٧٠ — للدكتور / على الحيدى .

(٢) ديوان البارودى ج ٢ ، ص ١٨

(٣) المرجع السابق ج ١ ، ص ١١

(٤) ديوان أبى الطيب المتنبى ، ص ١١٤ ، طبعة لجنة التأليف والترجمة ، والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٤ م

رَقْتُ لى الورقاءُ فى عَذَابَتِهَا وبَكَتْ عَلَى بَدْمَعِهَا الْأَنْدَاءُ
وتَحَدَّثَ رُسُلُ النِّسِيمِ بِلَوْعَتِي فَلِكُلِّ غُصْنٍ نَحْوَهَا إِصْفَاءُ^(١)

وواضح أن البارودى ، وإن تأثر فى قوله :
فانظر إلَى تَجِدْ خيالة صورة ... الخ البيت .

بيتى المتنبي السابقين ، إلا أنه أتى بالمعنى فى إطار عاطفى رقيق مؤثر ،
يختلف كثيراً عن ذلك الإطار الذهنى المتكلف الذى صب فيه المتنبي معناه ،
وإنه لتكلف واضح ألا يعلم المتنبي لشدة غرامه ، بالحزن الذى يعانىهِ لفراق
المحبوب ، فهو يأسف على الأسف الذى ذُهِل عنه ، وهو يشكو فقد المرض ،
الذى كان يحدث بسبب الحب ، لأن الغرام أفقده كل أعضاء جسمه ، فلم يُعَدِّ
فيه ما يمرض ويعتل ، والمبالغة هنا فاقعة .. وغير مستساغة .. !

كما نرى (البارودى) يفتخر فى تجربته العذرية بعفته وحيائه ، وذلك فى
قصيدته التى مطلعها :

غَادِ النَّدَى بِالْجِزْرِ الْفِيحَاءِ وَاخْذُ الصَّبُوحَ بِنَعْمَةِ الْوَرَقَاءِ^(٢)

وكذلك يمتزج غزله العذرى الحزين — عندما كان فى المنفى بوطنيته
الصادقة ، فيفيض باللوعة والحنين ، والشوق الى الديار ، ولعل هذا يوضح
ازدواج الحالة النفسية فى قصائده الغزلية الوطنية فى « سرنديب » ، ففى
الآيات التالية يتحدث عن حبيبته ، وهى فى أتم زيبها كعاشق سعيد ،
فيقول^(٣) :

مَرَّتْ عَلَيْنَا تَهَادَى فى صَوَاحِبِهَا كَالْبِدْرِ فى هَالَةِ حَفَّتْ بِهِ الشُّهُبُ
تَهْتَزُّ مِنْ فِرْعَا الْفَيْنَانِ فى سَرَقِ كَسْمَهْرِيٍّ لَهُ مِنْ سَوْسَنِ عَذْبُ^(٤)
كَأَنَّ غُرَّتَهَا مِنْ تَحْتِ طُرَّتِهَا فَجَرَّ بِجَانِحِ الظُّلْمَاءِ مُنْتَقَبُ^(٥)

(١) ديوان البارودى ج ١ ، ص ١١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨

(٣) المرجع السابق ج ١ ، ص ٦٤

(٤) العرع . الشعر التام ، الفينان : الحس الطويل . السرق : الحرير ، العذب : الواحدة بهاء طرف
كل شيء ، أى أن هذه الفتاة تهتز فى شعر طويل ناعم كالحرير ، اهتزاز ربح معتدل عقدت بهائيه
عذبات من السوس

(٥) جانحة : اسم فاعل ، من خنح الليل ، اذا مال ندهاب — مرجع السابق ص ٦٤

وفي القصيدة نفسها يقول :

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا لَاقَيْتُ مِنْ رَمْنِي أُنِي مُنِيْتُ بِخَطْبِ أَمْرَةٍ عَجَبُ
لَمْ أَقْتَرِفْ زَلَةً نَقَضِي عَلَى بِنَا أَصْبَحْتُ فِيهِ.. فَمَاذَا الْوَيْلُ وَالْحَرْبُ
فَهَلْ دَفَاعِي عَنْ دِينِي وَعَنْ وَطَنِي ذَنْبُ أَذَانٍ بِهِ ظَلَمْتُ وَأَغْتَرَبُ

وفي هذه التجربة العذرية يفيض شعره بالآلام والأحزان ، والعذاب والبكاء ، كقوله^(١) :

كَيْفَ أَرَوِي غَلِيلَ قَلْبِي وَلَمْ يَبْقَ لَعْنِي مِنْ بَعْدِ هَجْرِكَ مَاءُ
فَتَرَفُّ بِمَهْجَةٍ شَفَهَا الْوَجْدُ وَعَيْنِي أَخْنَى عَلَيْهَا الْبُكَاءُ .. !

ولكنه كالنهباني ، يقرن كثيراً من هذا الغزل بالفخر والحماسة ، فهو في إحدى قصائده — مثلاً — يتحدث عن غرامه المعذب ، ثم ينتقل الى الفخر بقومه الذين يدفعون عنه مصارع هواه ، فيقول :

رَجَالٌ أُولُو بَاسٍ شَدِيدٍ وَنَجْدَةٍ فَقَوْلُهُمْ قَرَل .. وَفَعْلُهُمْ فِعْلُ
إِذَا غَضِبُوا رَدُّوا إِلَى الْأَفْقِ شَمْسَهُ وَسَالِ بَدْفَاعِ الْقَنَا الْحَزْنُ وَالسَّهْلُ^(٢)

إنه لا ينسى كصاحبه (النهباني) الفخر ، في لحظات الحب ، ويتخذ الغزل — أحيانا — مقدمة يمهد بها للفخر^(٣) وما أكثر ما نجد الغزل في مقدمة قصائد الفخر عند البارودي ، كقصيدته التي يستهلها بقوله :

لَكَ رَوْحِي فَاصْنَعْ بِهَا مَا تَشَاءُ فَهِيَ مُنَى لِنَظَائِرِكَ فِدَاءُ^(٤)
وقصيدته التي مطلعها :

سَلُّوا عَنْ فَوَادِي قَبْلَ شَدِّ الرِّكَائِبِ فَقَدْ ضَاعَ مِنِّي بَيْنَ تِلْكَ الْمَلَاعِبِ^(٥)

وقصيدته التي مطلعها :

هَنِيئاً لِرِّيَا مَا تَضُمُّ الْجَوَانِحُ وَإِنْ طَوَّحَتْ بِي فِي هَوَاهَا الطَّوَائِحُ^(٦)

(١) ديوان البارودي ج ١ ، ص ٢٨

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩ ، ٢٠

(٣) المرجع السابق ج ١ ، ص ١٨

(٤) المرجع السابق ج ١ ، ص ١٨

(٥) المرجع السابق ص ٥٨

(٦) المرجع نفسه ص ١٠٦

إننا في هذه الدراسة أمام شاعرين رائدين ، قام كل منهما بدور متميز في الحفاظ على نقاء اللغة الشعرية في عصره ، فالعصر الذى عاش فيه (النبهاني) كان عصر انحطاط فنى ، وضعف تعبيرى ، إنه العصر الذى سيطر فيه تيار الشعر التقليدى بمبالاته ، وإغراقه فى المحسنات البديعية — على النحو الذى نلقاه فى شعر (الكيزاوى) و (الستالى)^(١) ، وظاهرة بروز شاعر يستوعب المعجم اللغوى فى عصر نقاء اللغة من الشوائب ، وأعنى به : معجم العصر الجاهلى ، وماراق وعذب من معجم العصرين الأموى والعباسى ، ظاهرة استيعاب شاعر لمئات المفردات من غريب اللغة ، وحسن استخدامها فى بناءه الشعرى ، بحيث نلمح روعة المعنى مع قوة المبنى ، وانسجام هذه الغرائب اللفظية ، مع النسيج الفكرى والتعبيرى ، وعدم ظهورها فى النص الشعرى كنتوء بارز يوقف انسياب التذوق الفنى ... هذا فى حد ذاته إبداع فنى لا يقدر عليه إلا شاعر موهوب متمكن من فنه .. ! فليست المشكلة بمجرد إتقانك بغريب اللغة ، ولكن المشكلة كيف تجعل هذا الغريب اللغوى جزءاً من حياتك الشاعرة ، وجزءاً من استخدامك الأدبى اليومى ، وجزءاً من وقائعك ومعاركك ، وجزءاً من نفسك ... ثم كيف ينبثق من أعماق روحك فى إيقاع موسيقى عذب ، وصياغة فنية محكمة .. !

وهكذا كان (البارودى) أيضاً .. (البارودى) ضابط الجيش الذى لم يدرس علوم اللغة والنحو وفنون الأدب فى أى معهد علمى ... ، ولكنه هام بالشعر وتيم به أولاً ... وكان من جراء ذلك أن ساقه ذلك التيم الى حفظ الكثير من القصائد ، واستيعابها ، ومعنى ذلك — كما يقول الدكتور شوقي ضيف — « أنه لم يستن سنة معاصريه من تعلم النحو والعروض والبديع حتى يحسن نظم الشعر ، وإنما استن سنة جديدة صحح بها موقف الشعر والشعراء ، فردهم الى الطريقة القديمة ، أو بعبارة أدق أرتد هو الى تلك الطريقة ونقصد طريقة الرواية التى كان يتلقن بها الشاعر الجاهلى والأموى أصول حرفته .

وكان هذا حدثاً خطيراً فى تاريخ شعرنا الذى تدهور إلى أساليب غثة مكسوة بخرق البديع البالية ، وتكرر فى صور من الهذيان على كل لسان ،
(١) انظر : الشعر العمانى — ص ٢٦ — ص ٣٠ — دكتور على عبد الحائق .

فأرال البارودى من طريقه هذه الأساليب ، واتصل مباشرةً بينايع الشعر العربى القديمة فى العصر العباسى ، وماقبله من عصور ، ولم يلبث أن أساغها وتمثلها تمثلاً دقيقاً ، فقد أثيرت بها روحه ، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من شعره وفنه .. !

وواضح من ذلك أن مذهبه الفنى لم يكن يقوم على نبذ القديم كله ، وإنما كان يقوم على نبذ صورة خاصة ، هى صورة الشعر الغث الذى ينتجه عصره والعصور القريبة منه ، أما الشعر العباسى وماسبقه فينبغى للشاعر ألا ينبذه ، بل عليه أن يسير فى دروبه ، ويصب على صيغه وقوالبه ، وكان هذا الاتجاه ، يعد ثورة فى عصره ، لأنه خروج عن مألوف معاصريه ، وعوّد بهم إلى أساليب لا يعرفونها ولا يألّفونها ، وكانت قد فسدت أذواقهم فأصبحت لا تقدرها قدرها ، ولا تشعر بما فيها من متاع وجمال^(١) »

وإذا كان (الفرزدق) بشعره فى العصر الأموى قد حفظ ثلث اللغة ، وإذا كان شعراء الأراجيز فى العصر الأموى أيضاً ، وعلى رأسهم (ربيعة بن العجاج) قد حفظوا فى أراجيزهم كثيراً من المتون اللغوية الغريبة التى كانت مهددة بالضياع ، وقاموا بدور ملحوظ فى مجال الشعر التعليمى ... إذا كان للفرزدق وشعراء الأراجيز فى العصر الأموى هذا الأثر الكبير ، فقد كان للنهبانى فى عمان ، والبارودى — فى مصر — الفضل الكبير والعظيم أيضاً فى حفظ هذه الثروة اللغوية من غريب اللغة ، وانقاذ التعبير الشعرى — أو — اللغة الشعرية فى عصرهما من مهاوى الابتذال والركاكة ، والبعد عن منابع اللغة النقية الصافية فى أزهى عصورها ... وتقديم نموذج قوى محكم للبناء التعبيرى الأدبى ، واللغة الشاعرة فى عصور كانت اللغة العربية فيها مهددة بالابتذال والانحطاط ، والعجمة والركاكة ، وكادت نماذج الشعر العربى التى عرفناها فى عصور القوة والازدهار ، أن تختفى ، وأن تؤذن شمسها بالمغيب ... !

(١) الأدب العربى المعاصر فى مصر — ص ٨٧ ، ٨٨ — للدكتور/شوق صيف .

المبحث الثانى الرؤية الوطنية فى الشعر العماني الحديث

مقدمة :

لعلنا لا نُبالِغ إذا قلنا : إنَّ الشعر الذى يقدم رؤية وطنية — بمفهومها العميق الذى يَشْمَلُ الأرضَ والإنسانَ والقيمَ والمبادئ — هذا الشعر يمثل — فى نظرى — واحدةً من أجمل واحات الاخضرارِ فى عالمِ الشاعر العربى ، وتَبَعُ نقاء وصفاء من أعذب الينابيع التى فاض بها نهرُ الشعرِ العربى قديماً وحديثاً ... ! إنَّه الواحة التى ترفرف حَوْلَهَا قِيَمُ الإنسانِ ومبادئه ، وذاكراتُ الماضى ، وكفاحُ الحاضرِ وأملُ المستقبل ، والتَّبَعُ الذى يَرِدُّه فى هجير الحياة ، فَيَنْهَلُ منه كحوسَّ الحُبِّ والحنان ، ويجد فى ظله الظليل برّداً وسلاماً ، ورَوْحاً ورَيِّحاًنا .. !

ولا عجب إذا وَجَدْنَا فى تراثنا العربى ، عَشَرَاتِ القصائد التى تفيض بالحنين الى الأوطان وعديداً من الكتب التى تقدِّم لنا مختاراتٍ من ذلك الشعر ، أو دراساتٍ أدبيةً عنه بل .. ولا عجب إذا وَجَدْنَا كُتُباً فى مجالات أخرى غَيْرَ مجالِ الأدب : تهتم أيضاً بتقديم نماذجٍ من ذلك الشعر ، كمُعْجَمِ البُلدانِ لياقوت الحموى وهو — كما نَعْلَمُ — مُصَدَّرٌ من مصادر الجغرافيا العربية القديمة ، ومع ذلك نَراه يقدم لنا نماذجٍ من الشعر الذى قيل فى الحنين الى وطن من الأوطان ، أو تفضيله على وطن آخر ، مما يُمكنُ أن تُفسَّرَ على ضوءه ، كَيْفَ نَمَتِ البذورُ الأولى للنزعاتِ الوطنيةِ الاقليميةِ فى العصر العباسى .

إضاءةً تاريخيةً حَوْلَ تَطَوُّرِ مفهومِ الرؤيةِ الوطنيةِ فى التراث العربى :

ولعل من الإنصاف للدراسة الموضوعية المتأنية ، أن أحاول إلقاء بعضي الأضواء على مفهوم كلمة (الوطن) فى التراث العربى ، لِكَيْ نَتَبَيَّنَ مَعَالِمَ هذا المصطلح والتياراتِ التى سار فيها ، والتطوراتِ التى أَلْمَسَتْ به فى الماضى ، ولا مفر — إِذَنْ — مِنْ توضيح مفهوم الوطن فى التراث العربى ممثلاً فى مجالَيْن —

أ — المعاجم اللغوية .

ب — الشعر العربى القديم .

وسأبدأ بتناوله فى —

(أ) المعاجم اللغوية :-

حين نتأمل مفهوم مصطلح « الوطن » في المعاجم اللغوية القديمة ، كمعجم « جُمهرة اللغة — لابن دُرَيْد^(١) — تَرى أن هذه المعاجم تُعرِّفُ الوطن بأنه مَرْبُضُ الإبلِ والغَنَمِ ، ومنه تطوَّرَ إلى مفهوم قريب من ذلك المفهوم ، ألا وهو : اتِّخَاذُ الْإِنْسَانِ مَكَاناً مَعِيَّناً يَنْزِلُ بِهِ ، أَوْ يَعِيشُ فِيهِ ، يَقُولُ الْفَيَرُوزَابَادِي — فِي مَعْجَمِ « الْقَامُوسِ الْحَيْطِ » : « الْوَطَنُ » مُحَرَّكَةٌ وَبُسْكُنٌ : مَنْزِلُ الْإِقَامَةِ ، وَمَرْبُطُ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ، وَوَطَنٌ بِهِ يَطْنُ وَأَوْطَنَ : أَقَامَ ، وَأَوْطَنَهُ وَوَطَنَهُ ، وَاسْتَوَطَنَهُ : اتَّخَذَهُ وَطْناً ، وَمَوَاطِنُ مَكَّةَ ، مَوَاقِفُهَا ، وَمِنْ الْحَرْبِ : مَشَاهِدُهَا^(٢) .

وَيَرى (ابْنُ سَيِّدِهِ) فِي مَعْجَمِ الْمُخَصَّصِ أَنَّ الْوَطْنَ « حَيْثُ أَقَمْتَ مِنْ بَلَدٍ أَوْ دَارٍ »^(٣) .

(ب) الرؤية الوطنية في الشعر العربي القديم :

استناداً إلى نصوص الشعر الجاهلي التي تتعلق بمفهوم « الوطن » يمكن أن نلمح مفهومين للوطن :

١ — مفهوم تؤمن به الغالبية ، ألا وهو : الأرضُ التي تنزلُ بها القبيلةُ ، فحيثما توجد القبيلة يوجد الوطنُ ، وحيثما يَنَائِي الشاعرُ عنها يكون الإحساسُ بالعُربةِ والألمِ ، والشوقِ والحنينِ ، وهكذا « فَنَيَّ الْعَرَبِيُّ الْأَوَّلُ فِي قَبِيلِهِ أَكْثَرَ مِمَّا فَنَيَّ فِي مَوْطَنِهِ ، فَلَقَدْ عَرَفَ الْمَوْطَنَ الْأَوَّلَ لِأَقْرَارِ عَلَيْهِ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ قَوْمِهِ وَعَرَفَتْهُ طَبِيعَةُ الْأَرْضِ ، كَمَا عَرَفَتْهُ خُلُفُ السَّمَاءِ ، أَنَّ الْبَقَاءَ عَلَى أَدِيمٍ لَا يَجُودُ هَلَاكٌ وَفَنَاءٌ ، فَلَمْ يُنْسَلِكِ الْأَرْضَ إِلَّا إِذَا أَمْسَكَتْهُ هِيَ بِمَا تُخْرِجُ ، وَلَمْ يُبْقِ عَلَيْهَا إِلَّا إِذَا بَقِيَتْ هِيَ لَهُ خِصْباً وَأَمْنًا ، إِلَّا أَنَّهُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ كَانَ لَا يَنْسَاهَا إِذَا تَحَوَّلَ عَنْهَا : وَيَبْقَى يَذْكُرُ مَرَاتِعَهُ بَيْنَ ظِلَالِهَا »^(٤) .

(١) جُمهرة اللغة لابن دريد ١١٩/٣

(٢) القاموس المحيط — ج ٤ — ص ٢٧٦ مادة (وطن) فصل الواو باب إلون .

(٣) المخصص لابن سيده ١١٩/٤ — وانظر « الحنين إلى الوطن في الأدب العربي — حتى نهاية العصر الأموي — محمد إبراهيم خور — ص ٩

(٤) الوطن في الأدب العربي — ابراهيم الاياري — ص ١٩

٢ - ومفهوم تؤمن به طائفة لم تنسج مع تقاليد المجتمع السائدة حينذاك ،
وهي : طائفة الصعاليك من خُلَعَاء ، وأغربة وقد آمنت هذه الطائفة بمفهوم
آخَر للوطن يَقُومُ عَلَى عصبية المذهب والاتجاه ، لاعصبية النَّسَبِ ، وقد اتَّخَذَ
شعراء الصعاليك من الصحراء الموحشة مستقراً لهم ، وعانوا التشرّد في
أرجائها الشاسعة ، وودَّيَانِهَا المخيفة ، وافتخروا باهتدائهم فيها دون دليل ، أو
قيامهم بِمُهَمَّةِ الدليل لجماعة من رفاقهم ، يفتخرون « تَأَبَّطُ سَرّاً » في حديثه إلى
امرأة حَظَّيْبَهَا فامتعت عليه بأنّه لطول تشرده في أعماق الصحراء ، قد أَلْفَتْهُ
وَحْشُ الصحراء ، واطمأنت إليه ، حتى لثَوْبُكُ أَنْ تُصَافِحَهُ ، لو أَنَّ وَحْشاً
تُصَافِحُ إِنْساً :

يَبِيتُ بِمَعْنَى الْوَحْشِ حَتَّى أَلْفَتْهُ وَيُصْبِحُ لَا يَحْجِي لَهَا الدَّهْرُ مَرْتَعاً
رَأَيْنَ فَنِي لاصِبِدَ وَحْشٍ يُهْمُهُ فَلَوْ صَافَحَتْ إِنْساً لَصَافَحَتْهُ مَعاً^(١)

وقبل أن تُغَادِرَ مفهومَ الوطن في العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي ،
يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نشير إلى تفسير بعض النقاد القدامى والمحدثين لظاهرة المقدمة
الطَّلَبِيَّةِ في القصيدة الجاهلية على أنّها تعبير عن الخنين إلى الأوطان ، هذا ما يراه
(الأبيدي) في موازنته بين أي تمام البحترى^(٢) ، و (ابن رشيقي) في العمدة
في صناعة الشعر ونقده^(٣) ، والدكتور شوقي ضيف في كتابه (دراسات في
الشعر العربي المعاصر)^(٤) .

وحين جاء الاسلام ، دعوة عالمية ، مبشراً بدعوة الحرية والإخاء والمساواة
للناسِ كُلِّ الناسِ ، اتَّسَعَ مفهومُ الوطن ، فأصبح وطناً عقائدياً يَشْمَلُ كُلَّ
أَرْضٍ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ ، وَكُلَّ أَرْضٍ تَرْتَفِعُ فِيهَا الْمَآذِنُ دَاعِيَةً إِلَى عِبَادَةِ
اللَّهِ ... !

(١) الأغاني ٢١٧/١٨ وقد ورد البيت الأول من هذين البيتين في كتاب (محاضرات الأدباء) للراغب
الأصبهاني ، هكذا : أَيْتُ بِمَعْنَى الْوَحْشِ حَتَّى الْفَتْهُ وَيُصْبِحُ لَا يَحْجِي لَهَا الدَّهْرُ مَرْتَعاً (محاضرات
الأدباء ص ٦١٨ باب : من أَلْفَتْهُ السَّاعُ وَالْمَفَاوِز) .

(٢) ٤٠٩/١ - الطبعة الثالثة

(٣) ١٩٨/١

(٤) ص ١٦٦

وعلى الرغم من أن الاسلام قد نادى بهذا الوطن العفائدى ، بذلك المفهوم العالمى ، ونتيجة لهذا المفهوم تَوَزَّعَ المسلمون فى أقطار الأرض ، قاصيها ودانيها ، مبشرين بدين الله ، وانتشرت جيوشهم فاتحةً لأنحاء مختلفة من الأرض ، وأقامت فيها فإنهم لم ينسوا أوطانهم التى وُلِدُوا فيها ، وعاسوا فيها أحلى أيام طفولتهم وشبابهم ، وفى القرآن الكريم نجد آيات كثيرة تُدافع عن حق الانسان فى الإقامة بوطنه ، وتهاجم هؤلاء الكفار الظالمين الذين يُخرجون الناس من ديارهم بغير حق ، يقول الله سبحانه وتعالى : « أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلُمًا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » ... الآية (١) .

والقرآن الكريم فى هذه الآية وفى آيات أخرى يجعل الإخراج — أو النفى من الوطن — مبرراً للقتال ، يقول الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٢) .

وهكذا أراد القرآن الكريم الوطن للمسلمين ، دار أمن ، وحرية وكرامة ، لا دار إيذاء وتشريد واضطهاد ، ومن هنا فقد حث القرآن الكريم على الاغتراب والهجرة ، إذا فقد المسلم أمنه وكرامته فى وطنه ، وفى هجرة المسلمين إلى الحبشة ثم إلى مكة ، نموذج لاغتراب الأحرار المؤمنين حين يغادرون أوطانهم — لاهرباً ولا فراراً — وإنما حشداً للقوى ، واستعداداً ليوم تُحرر فيه الأوطان من ظلام الشرك والأوثان ، والرسول عليه الصلاة والسلام ، حين هاجر من مكة ، أحس بلوعة الحنين إلى الوطن ، وقال مُنَاجِياً وطنه الأول (مكة) : « مَا أَطْيَبَكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ ، وَلَوْلَا أَنْ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ » (٣) .

(١) سورة الحج — ٤٠

(٢) سورة المتجنىة — ٨ ، ٩

(٣) حديث رواه الترميذى عن ابن عباس .

ولعل من المفيد قبل انتقالنا الى الحديث عن مفهوم الرؤيا الوطنية في العصر العباسي ، أن نُشير إلى وُرُود كلمة « الوطن » في بعض قصائد الشعر الجاهلي والإسلامي ، ومن ذلك قول « عنترة » :

أحرقني نار الجوى والبعاد بعد قنيد الأوطان والأولاد
شاب رأسي فصار أبيض لوناً بعد ماكان حالكاً بالسواد^(١)
وقال طرفة :

على موطن يحشى الفتى عنده الردى متى تعثر في الفرائض ترعى^(٢)
وقال عمر بن أبي ربيعة :

قد هاج قلبك بعد السلوة الوطن والشوق يحده للنازع الشجن^(٣)
وقال جميل بن مغمّر :

أنا جميل والحجاز وطني فيه هوى نفسي وفيه شجني^(٤)

وفي العصر العباسي تحدث في المجتمع الاسلامي تطورات عديدة في مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة والأدب ، ويقوى التيار الحضاري والروابط الثقافية ، وينمو الحوار المتبادل بين الطوائف المختلفة في المدن الجديدة ، كالبصرة وبغداد وغيرهما ، فتتشابهت حضارة جديدة ، تربطها تيارات « ثقافية » عديدة ، وحوار فكري خلاق ، وصراع مذهبي وسياسي ، وتشد هذه الروابط الحضارية الجديدة ، أبناء المدن إلى طيب عيشها واعتدال مناخها ، ومباهج متعتها ، ويتصاعد احساس الفرد بالوطن ، وبالأرض التي نشأ عليها ، وتنبو المشاعر الوطنية ، وبعد أن كان الشاعر الجاهلي يكثر من الحنين إلى الأطلال ، والشاعر الإسلامي يضيف إلى ذلك ، حنيناً إلى وطن ممثّل في الجزيرة العربية ، ترى الشاعر العباسي يقدّم لنا تطوراً جديداً في هذا المفهوم ، فيصبح الوطن هو البقعة الجديدة التي يعيش فيها الإنسان ، وترتبط حياته بها ، ولهذا اختفى شعور الحنين الى الجزيرة العربية ، وحل محله حنين إلى

(١) ديوان عنترة — ص ١٣٤

(٢) ديوان طرفة : ٤٣

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٤٣٥

(٤) ديوان جميل — ص ٢٠٦ — وانظر : الحنين الى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي ص ١١ وما بعدها .

البصرة والكوفة أو خُراسان^(١) ، وحينئذٍ كذلك إلى قصور المُدُن ، وأجوائها السعيدة الباسمة ... »^(٢) .

ولعلَّ أهمَّ مصادر التراث العربي التي اهتمت بدراسة الرؤية الوطنية في الشعر العربي القديم :

(١) كتابُ البُلْدان — للجاحظ — وهذا الكتاب — كما يرى الدكتور / نه الحاجري — أوَّل كتابٍ وُضِعَ في هذا الفنِّ في العربية ، وبِهِ يُعْتَبَرُ الجاحظُ رائداً في هذا المجال^(٣) وموضوع هذا الكتاب : الاغتراب والحنينُ إلى الأوطان .

(٢) رسالة في الحنين إلى الأوطان — للجاحظ — أيضاً — وهو مختارات أدبية تتعلق بموضوع الحنين إلى الأوطان^(٤) .

(٣) معجمُ البلدان — لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله : ويمكن أن نتلمَّس في هذا الكتاب بُدُورَ النزعاتِ الوطنيةِ الإقليمية التي أخذتْ تُنمُو في ظلِّ حُكَّامِ بني أمية ، ثم استفحل أمرُها بعد ذلك في العصر العباسي ، ويكفي أن نقرأ هذا الفصل بعنوان « في جُمَلٍ مِنْ أخبارِ البلدان »^(٥) حيث نجدُ المفاضلةَ بَيْنَ البلدانِ في محاورَةٍ بَيْنَ الحجاجِ بن يوسف الثَّقَفِي وأحدِ جُلُساتِهِ^(٦) ، ونجدُها كذلك في محاورَةٍ بَيْنَ مُعاويةَ وابْنِ الكَوَّاءِ .

(٤) محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء — للراغب الأصبهاني : ويقدم لنا في الكتاب في الجزء الثالث منه ، فصلاً بعنوان : « وما جاء في الأمكنة والأبنية » يتحدث فيه عن فضل مكة والمدينة ومِصرَ والكوفة

(١) انظر حين (محمد بن وهب) — مثلاً — الى البصرة — في الأغاني ح ١٧ ص ١٤١ وانظر حديث الدكتور/ زكي مبارك في كتابه (الموراة بين الشعراء) ص ٨٥ — ٨٧ عن روعة الحنين الى الوطن في شعر عوف بن محلم ، والقصيدة في (ضلقات ابن المعتز) ص ١٨٧ ، وانظر : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ١٩٧ — ١٩٩ — للدكتور/ محمد مصطفى هدارة — دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٢ م .

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربي — ج ٣ — العصر العباسي الأول ص ١٨٣ د . شوقي ضيف .

(٣) الجاحظ — حياته وآثاره للدكتور طه الحاجري ص ٣٩٠

(٤) رسائل الجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون ص ٣٨٠ — ص ٤١٢

(٥) انظر : معجم البلدان ح ١ — ص ٥٢ (طعة مكتبة حياط — بيروت)

(٦) المرحع السابق — الصفحة نفسها .

والبصرة وغيرها وعن مَصَادِر البلاد ومنافعها ، وتفضيل بِلَدٍ على بِلَدٍ ،
والبكاء على الديار وفراقها والأطلال وما قيل فيها من شعر^(١) ، كما يعقد
فصلاً بعنوان : « ومما جاء في التغرب »^(٢) يتحدث فيه عن الغربة
والسفر ، ومن ذم الغربة ومن مدحها من الشعراء والأدباء .
ثم يعقد بعد ذلك فصلاً بعنوان : « ومما جاء في الحنين إلى الأوطان »
ومن موضوعاته :

- (أ) رضى الناس بمسقط رأسهم .
 - (ب) فضلي محبة الوطن .
 - (ج) الحث على صيانة مَسْقِطِ الرأس .
 - (د) حُبُّ مَسْقِطِ الرأس وصُعوبة مفارقتِهِ .
 - (هـ) المُسْتَشْفَى بتراب أرضِهِ وريحها .
 - (و) الحنين إلى البادية والتبرُّم بالحاضرة^(٣) .
- (٥) المَنَازِل والديار — لأَسَامَةَ بن مُنْقِذ —

ولعلَّ هذا الكتابُ أعظمُ كتبِ التراثِ التي اهتمتْ بموضوع الغربة
والحنين إلى الأوطان ، لأنَّ المؤلِّفَ وَقَفَ كتابَهُ كُلَّهُ على دراسةِ هذا
الموضوع ، ولم يَحْلِطْهُ بموضوعاتٍ أُخْرَى — كما فعلَ الراغبُ
الأصبهاني — مثلاً — في محاضرات الأدباء ، أو « ياقوت » في « معجم
البلدان » وغيرهما . وقد أوضح لنا المؤلِّفُ سبب تأليفه هذا الكتاب
في موضوع الغربة والحنين إلى الأوطان . وهو : معاناته لتجربة الغربة
عندمَا غَزَا الصليبيون بلادَهُ . ولذلك يقول في مقدمة الكتاب :
« وإلى الله عزَّ وجلَّ أشْكُو مَا لَقِيتُ مِنْ زَمَانِي ، وانفرادي مِنْ أَهْلِي
وإخواني ، واغترابي عن بلادِي وأوطاني »^(٤) .

ويتكون هذا الكتابُ من ثلاثة عَشَرَ فَصْلاً ، تُدَوِّرُ كُلُّهَا حَوْلَ موضوع
الغربة والحنين إلى الأوطان .. !

(١) انظر هذا الكتاب من ص ٥٩٤ من الجزء الثالث ص ٦٠٧

(٢) المرجع السابق ص ٦١١

(٣) انظر هذه الموضوعات من ص ٦٢٠ — ٦٢٢ من المرجع نفسه

(٤) انظر : مقدمة الكتاب التي قَدَّمَ بها المحقق لمصوله ص ٤٠

مفهوم الرؤية الوطنية في العصر الحديث :-

وفي العصر الحديث يتشعب مفهوم الوطن والوطنية في العالم العربي والاسلامى ، وتتعدد تياراته واتجاهاته ، ولعل أقوى هذه التيارات : تيار الوطن الاسلامى الكبير ، أو تيار الجامعة الإسلامية — كما يطلق عليه مؤرخو العصر الحديث — ونتيجة لقوة العقيدة الاسلامية ، وتحديثها للعواصِف والمحن ، وحُب العالم العربى للإسلام والمسلمين وجرّسه على الوطن الاسلامى الكبير ، ظلّ تيار الجامعة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية هو التيار السائد دون منافس يُذكر لدى مُفكرى العالم العربى وأدبائه : كُتّاباً وشعراء طوأل القرن التاسع عشر ، وسبب ذلك — على ما يُظهر — ما كان للخلافة ودعاتها — من تأثير في نفوس المسلمين ، فكان سلطان تركيا الممثل الأكبر لعظمة الشرق والإسلام^(١) .

وفي ظل سيادة تيار الخلافة العثمانية ، كانت هناك محاولات ضعيفة لِخلق مفهوم آخر للوطن ، مفهوم يَسْتَنِدُ إلى « قومية عِلْمَانِيَّة »^(٢) أو قومية عربية ، أو قومية إقليمية تُعْتَرِّزُ بانتمائها إلى إقليم واحد مِنْ أقاليم العالم العربى . فقد حاول (محمد على) — مثلاً خَلَقَ قومية (عِلْمَانِيَّة) ذات مفهوم عِلْمَانِي ، أى قومية مجردة من النوازغ الدينية ، كما حاول (إبراهيم باشا) انشاء مملكة عربية مستقلة عن الخلافة العثمانية ، ويبدو أن هذه المحاولة ، كانت حلما يجول بخاطرهِ حينما صرح للبارون (بو الكونت) بقوله : « ماأنا بتركى ، بل أنا ابن مصر ، إن شمسها قد غيّرت دمي ، فجعلتنى عربيا قحاً »^(٣) ..

وكما حاول ابراهيم باشا ذلك ، فقد حاولت بعضُ الجمعيات السياسية العربية ، الاستقلالَ عن الخلافة العثمانية ، وإنشاء قومية عربية تُنْمُو في ظل وطن عربى^(٤) .

(١) انظر : الاتهامات الأدبية في العالم العربى الحديث — لأنيس المقدسى — (الطبعة الثانية — بيروت سنة ١٩٦٠) ص ١٥ وما بعدها .

(٢) كلمة (عِلْمَانِي — نفتح العين) سسة الى (العلم) بمعنى : العالم ، وهو ماليس دينيا ولا كهوتيا

(٣) انظر . الثورة العربية — للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ص ٢٢ وما بعدها .

(٤) الاتهامات الأدبية في العالم العربى الحديث ص ٧٣

ولكن هذه المحاولات القائمة على مُناهضة فكرة الجامعة الإسلامية ، أو التصدى للدولة العثمانية والدعوة إلى كيان عربي مستقل ، كانت مجرد همسات واهية طوال القرن التاسع عشر ولم تستطع الثبات أمام تيار « الجامعة الإسلامية » الذى ارتبط بالعقيدة الإسلامية لدى غالبية الشعوب العربية التابعة للخلافة العثمانية ، وهكذا لم تنجح محاولة محمد على فى خلق قومية علمانية لهذا السبب (١) ، ومن يراجع نفاثات الأدباء والشعراء والزعماء العرب فى هذه المرحلة التاريخية ، كأبى النَّصْرِ على ، والشيخ على اللبشى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، وشوقى وأبى مُسلم البهلانى العُمانى ، وهلال بن بدر البوسعيدى وعبد الله النديم ، والسيد توفيق البكرى ، والشيخ رشيد رضا — صاحب جريدة المنار — وناصيف اليازجى ، ويوسف الأسير ، والبارونى ، والشيخ على يوسف ، وأحمد فارس الشُّدياق ، يُضَافُ إلى ذلك بعض القيادات السياسية التى كان لها أثرها البارز فى الوطن العربى والعالم الإسلامى ، وعلى رأسها الزعيم المُسلم جمال الدين الأفغانى ، مَنْ يُراجِعُ شِعْرَ هؤلاء الشعراء ، وخطب أولئك المفكرين والزعماء ، فسيجد سيطرة تيار الجامعة الإسلامية على مفهوم الوطن فى شعرهم ونثرهم .. !

وهكذا فشلت الدعوة حينذاك إلى القومية العلمانية ، كما فشلت الدعوة إلى الإقليميات العنصرية ، كإحياء الفرعونية فى مصر ، والفينيقية فى لبنان ، والبابلية فى العراق ... الخ

فشلت هذه الدعوات فى القرن التاسع عشر ، فى الوقت الذى أحرزت فيه حركة الجامعة الإسلامية تأييداً كبيراً ، وبخاصة فى عهد السلطان عبد الحميد حين اشتدت مؤامرات المطامع الأوربية ضد الإسلام والمسلمين ، وأصبحت الخلافة العثمانية مهددة فى كل يوم باقتطاع جزء منها على يد الاستعمار الأوربى الذى لم يحُلْ من أحقادٍ مسيحية ، مما دعا السلطان عبد الحميد إلى رفع ذلك الشعار الإسلامى الرائع (يا مُسلمى العالم .. اتحدوا) وإذاعته ونشره فى جميع أنحاء الوطن الإسلامى .. ! (٢)

(١) انظر : الثورة العربية — للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ص ٢٤ وما بعدها

(٢) انظر التيار التراثى فى الشعر العربى الحديث — للدكتور / سعد دعبس ص ٩٠ وما بعدها ، وأنظر :

الانتهاكات الوطنية فى الأدب المعاصر ح ١ ، ص ٢ ، ٣ للدكتور / محمد حسين

ولعل من المفيد أن نُشير إلى مفهوم آخر للوطنية شاع لدى بعض شعراء المهجر الأمريكي في العصر الحديث ، يرى أصحابه « أن الوطنية الصحيحة لا تَقِفُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ محبة أوطان الآخرين ، وأن الإنسان الأمثل — كما عرّفه قسطنطين زريق — هو الذي يَشْمَلُ عالم الكون بأسره ، والبشر بكاملهم ... حتى يصبح ابن العالم »^(١) والرجل الأمثل لدى أصحاب ذلك الاتجاه هو الذي يشمل العالم كله ، وباستطاعته أن يشمل الجزء الذي يعيش فيه دون تعصب لطائفة أو جنس أو لون ، كما يرى (أحمد أمين) أنه لا بُدَّ من قيام الوطني الإنساني الأكبر ، لأنَّ العلم قد كَسَرَ الحدودَ بين الأمم ، وألغى المسافات بين أجزاء العالم فوسائل النقل هي وسائل العالم ، والراديو صوت العالم ، وخيرات العالم للعالم^(٢) ، ويقول (جبران) بهذا الصدد : « إن الأرض كلها وطني ، وجميع البشر مواطني^(٣) » ، كما يرى (ميخائيل نعيمة) أن الوطنية الإنسانية يجب أن تتحقق الآن ، وأن القومية العمياء يجب أن تتخلى جانباً من الطريق ، أو أن تسير مُبصرة مؤمنة مع قافلة الإنسانية المؤمنة المُبصرة إلى هدفها البعيد ، ألا وهو توحيد قوى الإنسان ، وتحريره من قيود الحدود لراحة كل قوم ، ولمجد الإنسان أينما كان ، ومن أي جنس كان^(٤) .

الرؤية الوطنية في الشعر العُماني الحديث :-

بعد هذا العرض الموجز للتيارات الوطنية في الشعر العربي قديماً وحديثاً .. ثرى .. أين يقف تيار الشعر الوطني العُماني من هذه التيارات ؟ أستطيع أن أقول — على ضوء مآثره من ذلك الشعر : إنَّ الرؤية الوطنية في ذلك الشعر لا تنفصل بحالٍ من الأحوال عن الرؤية الإسلامية ، إنَّهما يمتزجان ويتعانقان ، ويرتبطان برباط وثيق ، فالوطن كما تصوّره الشعراء العُمانيون المُحدَثون لا يعنى حدوداً إقليمية ضيقة ، وإنَّما ينفتح على آفاق العالم الإسلامي كله ، وعلى قضاياه وأحداثه ، ومبادئه وقيمه ، وماضيه وحاضره ومستقبله ، بحيث تُصبح (عُمان) والإسلام أشبه بوجهين العملة واحدة ...

(١) انظر : الوعي القومي — قسطنطين زريق — (بيروت — مطبعة الاتحاد — ١٩٤٠ — ص

(٢) انظر : فيص الحاطر ح ٣ ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٣) « دمعة واتسامة » ص ٨٧

(٤) ميخائيل نعيمة ، الأوثان ، ص ٤٨ وانظر . القيم الروحية في الشعر العربي قديماً وحديثه — لثريا

ملحس — ص ٣١٢ وما بعدها —

بُنْ عُمان الحديثة في نهضتها الحاضرة ، ليست إلا عُمان الإسلام والتراث الحضارة .. هي عُمان : القيم والفكر .. إشراقة الماضي وأضواء الحاضر ، هي الأصالة والمعاصرة ... أعماق التاريخ المضيئة ، وماذنه البيض ، وأجاده المتألقة .. عُمان ذات الثلاثين ألف مخطوط ، ومأروع قول وزير الإعلام العُماني الذي ثقلته عنه (جريدة عمان) في ملحقها الثقافي ، حيث تقول : « في تصريح مشهور لوزير الاعلام العُماني ذات يوم ، قال : « إِنَّا نَهْدَفُ إِلَى تَغْيِيرِ نَظَرَةِ الْعَالَمِ إِلَيْنَا ، إِنَّهُمْ أَصْبَحُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْنَا ، وَكُنَّا بِرَمِيلٍ نَفِطُ مَتَحَرِّكٍ ، وَلَكُنَّا يَجِبُ أَنْ نَبْدِلَ هَذِهِ النِّظَرَةَ الْخَاطِئَةَ ، لِهَذَا تَرَانَا نُقِيمُ الْمَعَارِضَ ، وَالْأَسَايِعَ الثَّقَافِيَّةَ وَالْحَضَارِيَّةَ الْعُمَانِيَّةَ فِي أَغْلِبِ أَرْجَاءِ الْعَالَمِ لِأَنَّهَا أَسْيَاءٌ مَحْبِبَةٌ لِلشُّعُوبِ » ثُمَّ يَقُولُ كَاتِبُ الْمَقَالِ بَعْدَ ذَلِكَ : « وَثَمَّةٌ تَقْدِيرٌ مَبْدِئِي يَقُولُ : إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ دَارِ الْمَخْطُوطَاتِ الْعُمَانِيَّةِ حَوَالِي أَرْبَعَةِ آلَافِ مَخْطُوطٍ ، يَتِمُّ هُنَاكَ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثِينَ أَلْفَ مَخْطُوطٍ عِنْدَ مُخْتَلِفِ الْأَسْرِ ، وَالرَّقْمِ قَابِلٍ لِلزِّيَادَةِ » (١) .

وَمُنْذُ أَشْرَقَ الْإِسْلَامُ بِنُورِهِ عَلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ ، اخْتَضَوْضَتْ سَمَاوَاتُ عُمَانَ بِوَحَايَةِ الضِّيَاءِ الْحَمْدِيَّةِ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِهَا الْمِيَامِينِ جُنُودُ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ صَدَّقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، وَمَصَادِرُ التَّارِيخِ قَدِيمِهِ وَحَدِيثِهِ تَفِيضُ بِالْمَوَاقِفِ الْبَطُولِيَّةِ ، وَالْأَجَادِ الْعِلْمِيَّةِ لِأَهْلِ عُمَانَ فِي ظِلِّ الْإِسْلَامِ ، فَلَا زُدَّ وَهُمْ الْأَجْدَادُ الْقَدَامَى لِلْعُمَانِيِّينَ ، كَانُوا صَحَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْصَارَهُ ، وَيَذْكُرُ مُؤَلَّفُ كِتَابِ : « الْفَتْحُ الْمُبِينُ فِي سِيرَةِ السَّادَةِ الْبُوسَعِيِّينَ » (٢) وَهُوَ : حَمِيدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ رَزِيْقٍ ، كَثِيرًا مِنْ أَعْلَامِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْأَزْدِ مِنْهُمْ : « أَبِي بْنُ كَعْبٍ بْنِ قَيْسٍ » الَّذِي قَالَ فِيهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أَقْرَأُ أُمَّتِي أَبِي » .. وَمِنْهُمْ : أَنَسُ بْنُ قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ ، وَكَانَ مِنْ أَفَاضِلِ الصَّحَابَةِ ، وَأَعْلَمِهِمْ ، وَأَفْهَمِهِمْ ، وَمِنْهُمْ : أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ بْنِ النَّضْرِ بْنِ ضَمْضَمِ بْنِ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ ، خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٣) ... الخ (انظر نماذج كثيرة منهم في هذا الكتاب) (٤) .

(١) جريدة عمان — الملحق الثقافي — الخميس ١٨ من ديسمبر ١٩٨٦ م

(٢) قام بتحقيق هذا الكتاب : عبد المعمر عامر — والدكتور / محمد مرسى عبد الله — ١٩٧٧ م .

(٣) ص ٧٨ وما بعدها من كتاب « الفتح المبين في سيرة الوسعديين » .

(٤) من ص ٧٨ — إلى ص ١١٥

ثم يتحدث المؤلف عن أشهر علماء الأزد، قائلا: «فمن علمائهم الجماهير، وثقاتهم النحارير، الشيخ الإمام العلامة: أبو الشعثاء، علم العالم والحليم، جابر بن زيد الأزدي العماني — رحمه الله تعالى ورَضِيَ عَنْهُ، أَخَذَ الحديث النبوي عن ابن عباس وثقات الأنصار والمهاجرين وعائشة بنت أبي بكر، أم المؤمنين، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال لزوجته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها «سألتك من بعدى رجل من أهل عُمان واسمُه جابر بن زيد، يسألك فأجيبه عن كل مايسألك عنه، ولو سألك عما بيني وبين سائر نساء لا تكتميه شيئا علمت به عني» ومن حديث عائشة لحابر عن النبي ﷺ: أَكْثَرُ وَرَادٍ حَوْضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَهْلُ عُمان» (١).

ثم يفيض المؤلف بعد ذلك في الحديث عن أجداد عُمان العلمية قديماً، ومشاهير علمائها، ذاكراً منهم العالم الفقيه أحمد بن عمر بن أبي جابر الأزكي أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الكندي صاحب كتاب (بيان الشرع)، ومنهم أيضاً صاحب كتاب (العين) الخليل بن أحمد (٢) وانظر المزيد من هؤلاء العلماء الكبار في هذا الكتاب (٣).

ولا يمكننا ونحن نتحدث عن التراث العماني القديم أن نُغْفِلَ الأجداد البطولية التي حققها بطل عُمان الكبير (مالك بن فهم) طارداً الفُرس من عُمان، فهو الذي قاد جموع الأزد إلى عُمان، وقام بإجلاء الفُرس عنها (٤)، كما يجدر بنا في هذا المجال الإشادة بأبطال عُمان الذين تصدّوا لمظالم الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي، وهزموا جيوشه التي أرسلها لإخضاع العُمانيين، ومن أشهر هذه الهزائم: هزيمة قائد الحجاج المُسمي: «القاسم بن شقوة المُرزني» (٥).

لقد كان الإسلام — وما يزال — هو العامل الأول في وحدة الشعب

(١) المرجع السابق نفسه — المكان نفسه

(٢) انظر ص ١٤٤ وما بعدها من المرجع نفسه

(٣) من ص ١٤٤ — إلى ص ٢١٢

(٤) انظر كتاب (تاريخ عُمان المقتبس من كتاب: كشف العمة الخامع لأخبار الأمة) ص ١٩ وما بعدها — تأليف: سرحان بن سعيد الأزكوي العماني — تحقيق عبد الحميد حبيب القيسي —

نشر — وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عُمان .

(٥) ص ٤٠ من المرجع السابق .

العماني — وانسجامه فكريا وروحيا — على الرغم من تعدد قبائله ، وتعدد
بيئاته الجغرافية ، وفي ذلك يقول الأستاذ صادق حسن عبدواني — في حديثه
عن نشأة الدولة العُمانيّة وازدهارها : « ومن العوامل التي ساعدت على
الوحدة والتكاتف انتفاء المجتمع العماني ككل إلى الإسلام ، وانتهاء غالبيتهم إلى
المذهب الإباضي ، بل إن ولاء الشعب العماني لهذا المذهب ، خصوصا في
القرون الأولى من الإسلام ، ساعد كثيراً نتيجة فلسفة هذا المبدأ ، على اختيار
زعامات دينية استطاعت أن تحقّق السلطة المركزية في البلاد التي انضوت تحت
لوائها ككل القبائل العمانية (١) .

الرؤية الوطنية والإسلام في الشعر العماني الحديث :-

على ضوء هذه المسيرة الإسلامية لعمان ، عبر عصور التاريخ الاسلامي ،
انطلق شعراء عمان المُحدثون ، يَنْهَلُونَ مِنْ منابع التاريخ الاسلامي بصفحاته
المشرقة ، وَيَقْبِسُونَ من أضواء الحضارة الاسلامية في أزهى عصورها ،
وَيُشِيدُونَ بالبطولات الاسلامية ، وَيَتَعَنُونَ بأمجادِ عُمان الاسلامية ، وَيَعْتَزُونَ
بعقيدتها الاسلامية ، وَيُصَوِّرُونَ طبيعتها الجميلة ، وشعبها الوفّي ، وقادة
كفاحها البطولي قديما وحديثا ... !

ولعل أهم الدعام التي قامت عليها الرؤية الوطنية في الشعر العماني الحديث

هي :-

(أ) التزام عمان بالمنهج الاسلامي :-

وقد التزم شعراء عُمان ، في مختلف عصور التاريخ الاسلامي ، بهذا النهج
الاسلامي وصدر شِعْرُهُمْ من منطلقات تُمَثِّلُ رُؤْيَا اسلامية للكون والوجود ،
والحياة والمجتمع ومن ثَمَّ فَقَدْ سَلِمَ شِعْرُهُمْ من سَلِيَبَاتِ مَسِيرَةِ الإبداع الشعريّ
العربيّ قديماً وحديثاً وفي ذلك يقول الشاعر سليمان بن خلف الخروصي — في
تقديمه لديوان النَّبْهَانِي — عن الشعراء العمانيين — « فَقَلَمًا نَجِدُ فِيهِمْ شَاعِرًا
يقول هَزْلاً أو مُجَوِّناً أو هجاء ، بل نَجِدُ الشَّعْرَ العماني — قديماً وحديثاً —
أغلبه إن لم نُقَلِّ كُلَّهُ — وهو يتركز في الآتي :-

(١) ص ١٠ من كتاب (حصاد مدوة الدراسات العمانية) المجلد الثاني — نشر وزارة التراث القومي
والثقافة —

- (١) نَشْرُ عَقَائِدِ الدِّينِ .
- (٢) فِي التَّحْرِيزِ عَلَى الْجِهَادِ وَوَصْفِ الْمَعَارِكِ وَالتَّرغِيبِ فِي سَبِيلِ الشَّهَادَةِ رَفْعاً لَاعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِعْزَازِ الْإِسْلَامِ .
- (٣) فِي السُّلُوكِ وَالتَّصَرُّفِ .
- (٤) فِي الْوَعْظِ وَالزُّهْدِ .
- (٥) فِي الْحُكْمِ وَالْأَمْثَالِ .
- (٦) فِي الْفَخْرِ وَالْحِمَاسَةِ (١) ... الخ

ولا عجب إذا وَجَدْنَا أَحَدَ الْمُؤَرِّخِينَ الْمُحَدِّثِينَ يَرَى أَنَّ الصَّحُورَةَ الْعُمَانِيَّةَ الْمَعَاصِرَةَ ، هِيَ امْتِدَادٌ رَائِعٌ لِلْعَصْرِ الذَّهَبِيِّ لِلْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ (٢) .

ولعل الدعوة إلى الالتزام بالشريعة الإسلامية ، والعودة إلى مَنَارَاتِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأَصِيلَةِ ، كَانَتْ مِنْ أْبْرَزِ الْأَغْرَاضِ الَّتِي اِهْتَمَّ بِهَا الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ عَبْدُ اللَّهِ الْخَلِيلِيُّ فِي دِيْوَانِهِ « وَحْيُ الْعِقْرِ » وَمِنْ قِصَائِدِهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ : قِصِيدَةُ عُنَانِهَا (عُمَانٌ فِي أَحْسَنِ السُّلُوكِ) الَّتِي يَصُورُ فِيهَا الشَّاعِرُ حُزْنَهُ وَأَلَمَهُ ، لِابْتِعَادِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ مَنَهِجِ اللَّهِ ، وَتَعْطِيلِهِمْ حَدُودَ الشَّرْعِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ :

سَيِّدِي عَطَلْتُ حَدُودَ قِضَاهَا اللَّهُ فِينَا وَاسْتَوَلَتْ الْأَهْوَاءُ

سَيِّدِي .. عَطَلْتُ شَرَائِعَ كَانَتْ لَكَ فِينَا بِثُورِهَا يُسْتَضَاءُ .. !

قَضَمَتْهَا الدُّنْيَا بِأَنْيَابِهَا الْعُصْلِ .. وَدَارَتْ مِنْهَا بِهَا الْأَرْحَاءُ (٣)

ويقول أيضا في هذه القصيدة :

يَا قَوْمِي وَكُلُّ أَتْبَاعِ خَيْرِ الْخَلْقِ : قَوْمِي .. أَيْنَ التَّقَى وَالْإِبَاءُ ..

أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ فِي أَحْسَنِ الْقَوْلِ مِنْ كُلِّ حَوْلٍ بَرَاءُ

فَأَجِيبُوا يَاقَوْمَنَا دَاعِيَ اللَّهِ .. إِذَا كَانَ فِيكُمْ إِصْغَاءُ

مَا أَلَوْتُ الْإِسْلَامَ نُصْحاً وَلَا أَهْلِيهِ حُبًّا ، فَهَلْ لِنَهْجِي اقْتِفَاءُ

وَتَعْلُو نَبْرَةَ الْحَزَنِ حِينَ يُنَاجِي شَعْبَهُ الْحَبِيبَ ، مَذْكُراً إِيَّاهُمْ بِثُورِ عُمَانَ عِنْدَ ظَهْوَرِ الْإِسْلَامِ :

(١) انظر : ديوان الهلالي — المقدمة — ص ١ وماعدها

(٢) انظر : حصاد ندوة الدراسات العمالية ج ٢ — ص ٢٤٦ وماعدها

(٣) ديوان الخليلي (وحى العقري) ص ١٠٠ وماعدها

لَهْفُ نَفْسِي وَلَوْ تَلَهَّفْتُ عُمرِي مَاشَفَانِي تَلَهْفٌ وَبُكَاءُ
يَا عَمَّانُ اسْلُكِي سَبِيلَكَ مَا اسْطَعْتُ فَلِلدِّينِ بَعْدُ فَيْدُ بَقَاءُ
رَشَحْتُكَ الْأَنْوَارُ مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ فَطَابَ التَّرْشِيحُ وَالْإِعْتَاءُ
وَقَرْتُكَ الْأَنْوَاءُ مِنْ خَالِصِ الذِّكْرِ فزَانَتْ يَذْكُرُكَ الْأَنْبَاءُ

ثم يتحدث عن دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام لأهل عمان قائلا :

رَحِمَ اللَّهُ .. قَالَ : « أَهْلُ الْعُيُورِ .. آمَنُوا بِي .. وَلَمْ يَرُونِي وَفَاعُوا
مَاعَصُوا إِذْ أَتَى فَتَى .. الْعَاصِي .. مَبْعُوثًا إِلَيْهِمْ . وَيَا لِنِعْمِ الْوَفَاءِ
سَلَكَوْا فِي الْهُدَى سَبِيلَ ابْنِ بَكْرِ وَخَفَصِ .. وَهُوَ السَّبِيلُ السَّوَاءُ (١)

كما نراه في (مقصودته) التي يعارض بها مقصورة الشاعر العماني القديم
(ابن دُرَيْد) يستحث هِمَمَ المسلمين لِيَبْعَثَ أَمْجَادَ الْإِسْلَامِ مِنْ جَدِيدٍ :
يَا لَلرَّجَالِ .. أَئِنَّ مَا خَلَفَهُ أَبَاؤُكُمْ مِنْ شَرَفٍ لَا يَغْتَلِي
يَا لَلرَّجَالِ .. أَئِنَّ مَا كَانَ لَكُمْ أَكَانَ مَقْصُورًا عَلَى أَمْسٍ مَضَى (٢)

وما أكثر ما يصادفنا في الشعر العماني الحديث : الاعتزاز بالدور الإسلامي
الذي قام به شَعْبُ عُمَانَ عَبْرَ عصور التاريخ ، يقول الشاعر سَالِمُ الْكَلْبَانِي ،
مُخَاطِبًا عَمَّانَ :

أَمَا كُنْتُ مِنْ قَبْلِ التَّوَارِيخِ مَصْدَرًا لِكُلِّ نَيْلٍ يُسَعِدُ السَّهْلَ وَالنَّجْدَا
هَلِ الْبَحْرُ نَاسٌ أَنْ مَلِكِكَ دَاسُهُ وَذَلِكَ حَتَّى غَدَا حُرُّهُ عَبْدَا
تَمَشَّيْتُ فِي أَقْصَى مُحِيطَاتِهِ عَلَى أَسَاطِيلِ حَقٍّ دَكَّتِ الْبَغْيُ فَا نَهْدَا
فَارْسَيْتُ فِي شَرْقِ الْوَرَى وَجَنُوبِهِ قَوَاعِدَ لِلْإِسْلَامِ سَامِيَةَ الْمَبْدَا
وَجَاهَدْتُ فِي الرَّحْمَنِ حَقَّ جِهَادِهِ وَهَذَا هُوَ الْأَوْفَى لَدَى اللَّهِ وَالْأَجْدَى
وَأَصْبَحْتُ فِي فَخْرَيْنِ : فَخْرٍ وَرِثْتِهِ قَدِيمًا ، وَفَخْرٍ مُحَدَّثٍ نِلْتِهِ كَدًّا (٣)

ويرى ذلك الشاعر أيضاً أن الأمة الإسلامية المعاصرة لن يعلو شأنها ولن
نتقدم إلا إذا سارث على نهج الإسلام ومبادئه من جديد :
وَمَنْ يَكُ نَهْجُ الْمُصْطَفَى السَّمْحُ نَهْجُهُ يَجِدُ وَرْدَهُ عَذْبًا وَمَضْجَعَهُ وَهْدًا (٤)

(١) القصيدة السابقة — المرجع السابق ص ١٠٣ ، ص ١٠٤

(٢) المرجع نفسه — ص ١٣٣ من قصيدة (المقصورة)

(٣) من قصيدة بعنوان (عمان المشرق الماضي المجد) ص ١٤٣ — من الدوة الأولى لشعراء دول

الخليج العربية — نشر وزارة التراث القومي والثقافة — سلطنة عمان —

(٤) القصيدة السابقة نفسها

كما نرى الشاعر الشَّيْخَ بَلَدَرُ بْنُ سَالِمٍ الْعَبْرِيَّ يؤكد ذلك الاتجاهَ نفسه في قصيدة له بعنوان (لَكَ الْخَيْرُ قَابُوس) وَيُشِيدُ بِالْأَدْرِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ عُمانُ في خدمة الإسلام فيقول :

لَقَدْ خَصَّكَ الْمُخْتَارُ بالدعوة التي
فلازِلَتْ عَرْشَ الْمَجْدِ والتَّوَرُّو الهُدَى
عَلَيْهِ اسْتَوَى أَهْلُ الْكَمَالِ رِفْعَةً
عَلَى فَلَكِ الْأَزْدِ الْكِرَامِ وَعِصْهِمْ
مُلُوكُ وَمَا التَّاجُ الْمُرْصَعُ فَعَرْهُمُ
سَمَوَاتِي سَمَاءِ الْفَضْلِ وَالْمَجْدِ وَالْعُلَا
تَتَابَعُ مِنْهُمْ سَيِّدٌ بَعْدَ سَيِّدٍ
إِلَى أَنْ أَتَى قَابُوسٌ وَاسِطٌ عِقْدِهِمْ

بِهَا حُزِبَ فَضْلُ السَّبْقِ فِي كُلِّ مَهْيَعٍ
كَأَفْضَلِ عَرْشٍ فِي الزَّمَانِ وَأَوْسَعِ
فَمَا عَرْشُ كِسْرَى قَبْلَ ذَلِكَ وَتَبِيعَ
تَجَلَّى شُمُوسُ الْحَقِّ فِي تَحْيِيرِ مَطْلَعِ
وَلَكِنْ يَتَاجُ الْعَدْلِ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ..
هَذَا إِلَى هَذِي النَّبِيِّ السُّمْرِعِ
وَسُلْطَانُهُمْ فِي عِزَّةٍ وَتَمَنِّعِ
وَدُرَّةٍ تَاجٍ بِالْمَعَالِ مُرْصَعِ (١) !

إن الشاعر الكبير عَبْدَ اللَّهِ بن علي الخليلي ، مِنْ أبرز شعراء العالم العربي الذين رَفَعُوا رَايَةَ الْخِلَاصِ ، برويته الوطنية الإسلامية ، تَلَمَّحَ ذلك في قصائد عديدة مِنْ ديوانه ، وأضيف إلى النماذج التي اخترتها في هذا الصدد ، قصيدته : « إلى رجال الاستقامة » فهو فيها يدعو أبناء وطنه في عمان ، وأبناء العالم الإسلامي كُلِّهِ إلى العودة مِنْ جديدٍ إلى منابع النور ، ومَشَارِقِ الْحَقِّ بعد أن ضَلَّتْ بهم السُّبُلُ ، وساروا خَبْطَ عَشَوَاءَ ، وَدَمِيتْ أَقْدَامُهُمْ عَلَى شَتَّى الدُّرُوبِ ، وفي ذلك يقول :

عَجِبْتُ لِمُخْتَارٍ عَنِ الْحَقِّ مَنَهْجاً
كَقَوْمِ ابْنِ عَمْرَانَ الْأَلَى ضَلَّ سَعْيُهُمْ
هَلُمَّ لِتَنْصُرِ اللَّهَ يَا خَيْرَ أُمَّةٍ
هَلُمَّ لِجَمْعِ الشَّمْلِ يَا خَيْرَ عُصْبَةٍ
هَلُمَّ لِإِعْزَازِ الدِّيَانَةِ إِنَّهَا
دِيَانَةُ تَوْحِيدٍ وَحُبِّ وَرَحْمَةٍ

وَمُتَّخِذِ غَيْرِ الْهَدَايَةِ مَتَجَرَا
فَأَصْبَحَ دُكَا طُورُهُمْ .. وَاهِي الدَّرَا
بِفَضْلِهِمُ الْقِرَانَ أَعْرَبَ مُخْبِرَا
بِهِمْ أَوْجَدَ اللَّهُ الْكَمَالَ مُصَوِّرَا
بِصَوْلَتِكُمْ طَالَتْ وَأَكْبَرَهَا الْوَرَى
يُقَرُّ لَهُ بِالْفَضْلِ مَنْ ضَلَّ مُتَكَبِّرَا (٢)

(١) إشرافات من الشعر العماني — العدد السابع عشر ص ٢٠
(٢) ديوان الخليلي (وحي العبقريّة) ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١

(ب) أمجاد عمان قديماً وحديثاً :-

وشعراء عمان المحدثون ، حين يفتخرون بأمجاد عمان وإبداعاتها ، وإنجازاتها في مجال العلم والحضارة ، وبطولاتها الحربية ، فهم لا يفتخرون فخرًا جاهلياً ، كذلك الفخر الذي نجد في معلقة عمرو بن كلثوم ، أو فخرًا عنصرياً يقوم على الاعتداد بالجنس وحده ، أو فخرًا اقليمياً بعيداً عن عالمية الإسلام وشموليته ، وأخوة الإيمان التي تشمل الوطن الإسلامي الكبير ، وأعني بالفخر الاقليمي ذلك اللون من شعر الفخر الاقليمي الذي نجد في أشعار « معجم البلدان » لياقوت الحموي — قديماً — والذي نجد — مع اختلاف بسيط — في عصرنا هذا ، لدى بعض شعراء الوطنية المحدثين في بعض البلاد العربية ، وهو ذلك اللون من الفخر الذي يحاول أن ينبعث من جديد التعصب لشعارات ورموز اقليمية ، يقف بها في وجه الداعين الى الأخوة الاسلامية ، والوحدة الاسلامية ، وليس بعيداً عنا أصداء تلك الصيحات التي كانت منذ عهد قريب تُنادى بالفينيقية ، أو البابلية أو الفرعونية كمنطلقات وحيدة للفكر والثقافة والوطنية ، في بعض البلاد العربية .. !

وقد ابتعد تيار الشعر الوطني العماني الحديث ، من هذه المتهاتات ، لأنه كان يستضيء بنور الاسلام ومبادئه ، وعالميته وشموليته ، فشعراء عمان حين يفتخرون بأمجاد آبائهم ، فهم يفتخرون بالدور الاسلامي والجهادي طوًلاً وآباء ... يفتخرون بهم كرموز نقيّة لمبادئ الاسلام ، وتجسيد رائع لقيمته ومبادئه ، وهم حين يفتخرون لا يفتخرون من فراغ ، فكتابات المؤرخين العرب ، والمؤرخين الأوربيين ، قد أرخت لمعاركهم وبطولاتهم عبر التاريخ ، في كفاحهم ضد الغزو الفارسي منذ أيا مالك بن فهم ، وضد الغزو البرتغالي ، وحملهم راية الاسلام في مناطق أخرى خارج عمان ، كما أرخت هذه المصادر التاريخية لأمجاد عمان البحرية ، وارتباط حياة الانسان العماني بالبحر منذ أقدم العصور ، ولإنجازات العلماء العمانيين في مختلف فروع المعرفة ، ولنتأمل مايقوله مؤرخ أوربي في بطولة العمانيين التي أبّوها في معاركهم ضد البرتغاليين المستعمرين ، يقول ذلك المؤرخ وهو مؤلف كتاب « عمان منذ ١٨٥٦ — مسيراً ومَصيراً » :

« وفي سنة ١٦٥٠ م أَجَلَّتِ القَوَاتُ العُمَانِيَّةُ المسلَّحةُ المحتلَّينَ البرتغاليينَ عن الأراضِي العُمَانِيَّةِ ، وعن مدينة « مَسْقَط » بِالذَّاتِ ، مُسَجِّلَةً بِذَلِكَ بِدَايَةَ النفوذِ العُمَانِيِّ فِي الخَلِيجِ الَّذِي امتدَّ زُهَاءَ قَرْنَيْنِ ، لَقَدْ كَانَتْ عَمَلِيَّةُ إِجْلَاءِ البرتغاليينَ مِنْ مَسْقَطٍ إِحْدَى العَمَلِيَّاتِ البَطُولِيَّةِ الَّتِي صَاحَبَتْ ثُمُو القُوَّةِ العُمَانِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ ، وَهِيَ قُوَّةٌ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُحَقِّقَ بِالمَقَائِيسِ الإِقْلِيمِيَّةِ ، مَرَكَزاً تِجَارِيّاً وَمَلَاخِيَا وَسِيَاسِيَا عَظِيماً »^(١) .

ثم يقول ، متحدثاً عن نهضة عمان في عهد اليعاربة ، وتطويرهم أسلحة البحرية العُمَانِيَّةِ : « وهكذا أصبح اليعاربة من القوة بحيثُ إنَّهم لم يكتفوا ، بَعْدَ احتلالِهِمْ لمَدِينَةِ مَسْقَطٍ فِي بِدَايَةِ الخَمْسِينَاتِ مِنْ القَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ بِطَرْدِ البرتغاليينَ مِنَ البِلَادِ ، وَمَا إِنِ تَوَحَّدَتْ عَمَانُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْذُ مِائَتِ السَّنِينَ ، وَتَحَرَّرَتِ الطَّبَقَاتُ التِّجَارِيَّةُ وَالْمِلَاخِيَّةُ مِنْ قِيودِ السُّلْطَةِ البرتغاليةِ حَتَّى أَخَذُوا فِي العَمَلِ عَلَى تَوْسِيعِ نفوذِهِم السِّيَاسِيَّ وَالاِقْتِصَادِيَّ إِلَى مَاورَاءَ البَحَارِ ، وَلَمْ تَنْتَهِ الحَرْبُ بَيْنَ العُمَانِيِّينَ وَالبرتغاليينَ ، فَقَدْ اِمْتَدَّتْ بِالأُخْرَى إِلَى بَقِيَّةِ الأَجْزَاءِ الغَرِبِيَّةِ مِنَ المَهِيطِ الهِنْدِيِّ ، وَمِمَّا سَاعَدَ العُمَانِيِّينَ عَلَى نَجَاحِهِمْ فِي هَذَا الصَّرَاعِ هُوَ تَسَلُّحُهُمْ بِنَوْعٍ جَدِيدٍ مِنَ السُّفُنِ الحَرَبِيَّةِ وَالمَدْفَعِيَّةِ ، فَقَدْ تَحَلَّلُوا عَنِ السُّفُنِ التَّقْلِيدِيَّةِ ، وَبَدَأُوا بِاسْتِخْدَامِ سُفُنٍ كَبِيرَةٍ الحِجْمِ عَلَى الطَّرَازِ الأَوْرُوبِيِّ ، وَمَا إِنِ حَلَّ القَرْنُ الثَّامِنَ عَشَرَ حَتَّى كَانَتْ جَمِيعُ الأَسَاطِيلِ البَحْرِيَّةِ تُضَمُّ سُفُنًا مِنَ الطَّرَازِ الغَرِيِّ ، بُنِيَ مُعْظَمُهَا فِي الهِنْدِ ، وَكَانَتْ مَزُودَةٌ بِمدْفعيةِ حَدِيثَةٍ »^(٢) وَيَقُولُ ذَلِكَ المُوَلِّفُ أَيْضَاً : « وَفِي مُسْتَهْلَقِ القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ ، لَعَبَ المَلَاخُونَ وَالتَّجَارُ العُمَانِيُّونَ دَوْرًا هَامًا فِي الحَيَاةِ التِّجَارِيَّةِ لِلشَّرْقِ ، وَكَانَ أُنْبَاءُ عَمَانٍ مِنْ أَوَائِلِ الَّذِينَ أَبْهَرُوا إِلَى الصِّينِ ، وَأَسْهَمُوا بِدَوْرٍ مَلْحُوظٍ فِي إِنْشَاءِ سِلْسِلَةٍ مِنَ المُدُنِ البَحْرِيَّةِ عَلَى امْتِدَادِ شَوَاطِيءِ أَفْرِيقِيَا ، عَلَى غِرَارِ المُدُنِ الَّتِي أَنْشَأَهَا عَلَى شَوَاطِيءِ الخَلِيجِ ... وَعَلَى امْتِدَادِ العَصُورِ ، كَانَ ثُمُو الحَضَارَةِ المِلَاخِيَّةِ ، وَتَطَوَّرَ المَصَالِحُ التِّجَارِيَّةُ يَسِيرًا جَنَبًا إِلَى جَنَبٍ »^(٣) (وَانْظُرْ

(١) عمان منذ ١٨٥٦ — مَسِيرًا وَمَصِيرًا — تَأَلَّفَ : روبرت جيران لاندن — تَرْجَمَهُ مُحَمَّدُ أَمِينُ عِيدِ اللَّهِ ص ٥

(٢) المَرْجِعُ السَّابِقُ ص ٥٠ ، ٥١

(٣) المَرْجِعُ نَفْسُهُ ص ٤٩ .

أيضا : ماكتبه المؤرخ العماني سرحان بن سعيد الأزكوي في كتابه (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة) ص ١٩ ومابعدها ، حول : مالك بن فهم / بطل عُمان وطارد الفرس من عمان ، والذي قاد جموع الأزد الى عُمان^(١) ، وانظر أيضا : ماكتبه المؤلف الأوربي (روبرت جيران لاندن) حَوْل بطولية الامام أحمد بن سعيد / في تحرير عُمان مِنْ سيطرة الفرس المحتلين^(٢) ، وانظر : ماكتبه الأستاذ صادق حسن عبدواني عن الملاح العماني ابن ماجد الذي أرشد (فاسكودي جاما) إلى الطريق الى الهند عام ١٤٩٨ م^(٣) .

وهذا الخطّ الاسلامي في الفخر الوطني العماني ، يثبو وبصورة واضحة في كثير من شِعْرِ الشعراء العمانيين المحدثين ، سواء في ذلك فخرهم بأنسابهم ، أو بأجداد هؤلاء الآباء قديماً وحديثاً في مجالات العلم والحضارة والبطولات الحربية ، فالخليلي — مثلاً — يرى في إحدى قصائده أن الإنسان العماني المسلم المعاصر ، هو ابن المسلمين الذين سادوا الدنيا :

أَيَا بَنِ الْأَلَى سَادُوا مِنَ الْكَوْنِ أَهْلُهُ وشادوا به مِنْ فخرهم بخير بنيان
وأغلبوا به الله خير شريعة حنيفة بيضاء في خير أديان .. ١
على ملكوت الله .. أمّا وجوههم فيض ، وأمّا وجه صارمهم قان^(٤)

ويقول في مقصودته أيضاً ، داعياً الأبناء إلى أن ينهجوا نهج آبائهم الأبطال :

يَا بَنِي أَبِي سَلاماً زَاكِياً مِنَّا عَلَى تِلْكَ الْخَطَا وَمَنْ خَطَا
آبَاؤُنَا .. وَمَنْ لَنَا بِمِثْلِهِمْ في الجوهريين : العلم والجلم سوا
هَلَمْ نَحْذُو حَذْوَهُمْ فَمَنْ حَذَا حَذُو أَبِيهِ فِي الْهَدَى فَمَا غَوَى^(٥)

ويفتخر بعُمان فيقول :

عُمان التي ما أنبت غير ماجد جليل نمتة للجلال جلود
وغير سخي كم يبيت على الطوى ليطعم ليلاً أيقظته وفود

(١) كشف الغمة ص ١٩ ومابعدها

(٢) ص ٥٣ من المرجع نفسه

(٣) انظر : دراسة لهذا المؤرخ في كتاب « حصاد ندوة الدراسات العُمانية » — المجلد الثاني — ص ١٤

(٤) ديوان الخليلي (وحي العبقرة) ص ١٢٠ من قصيدة (وادي الخيال) .

(٥) ص ١٢٧ ومابعدها من المرجع السابق .

أولئك أسلافى بها ، وعشيرتى
إذا حملوا فالكون دِرْعٌ وصارمٌ
بُناةُ المعالي والزمان يَلِيدُ
وإن حَكَمُوا فالعدلُ وهو عَمُودُ(١)

ولعلَّ غرامَ بعض الشعراء العمانيين المحدثين ، بتصوير البطولات الحربية قديماً وحديثاً ، هو الذى دَفَعَهُمْ إلى ارتياد مغامرة الإبداع المَلْحَمِيّ ، وقد حاول بعضُ رُوّاد الشعر العربى الحديث كتابةَ إلوّانٍ من الملاحم ، وعلى رأسى هؤلاء الشعراء : الشاعرُ الاسلاميُّ أحمد محرم الذى نَظَّمَ الإلياذةَ الإسلامية — أو — (إلياذةَ مَجْدِ الإسلام) كما حاول غيرُه نَظَّمَ المُطُولاتِ البطولية التى تحاول الاقترابَ من الطابع القصصى الملحمى ، وإن كانت تفتقد بعض الخصائص الفنية للمَلْحَمَةِ ، وأهمُّها : قِيَامُ ملحمتي هوميروس : الإلياذة والأوديسا — على الأساطير التى تمثّل طفولة الإنسانية فى عصور موعِلةٍ فى التاريخ ، ومن هذه المحاولات قصيدة (العُمريّة) لحافظ ابراهيم ، وتقع فى نحو مائة وتسعين بيتاً ، وعلى غرارها: علوية الشيخ عبد المطلب ، وبكريّة عبد الحلیم المصرى ، وخالدية عُمَر أبو ريشة وغيرها ... ، ولشوق أيضاً لإسهام كبيرٍ فى ذلك المجال ، وإن كان بعضُ النقاد المحدثين ، يَرَوْنَ أن عصرَ الملاحم الشعرية قد انتهى مع بداية سيطرة الاتجاه العلمى العقلانى فى العصر الحديث ، وللدكتور محمد غنيمى هلال رأى يؤيد ذلك الاتجاه ، ويمكن الرجوعُ الى مآكته فى ذلك الصدد فى دراساته عن النقد الأدبى الحديث والأدب المقارن .

وتبرزُ الملحمةُ التاريخيةُ للشيخ عبد الله الخليلي مِنْ بَيْنِ هذه المحاولاتِ التى لها أهميتها فى تاريخ الشعر العربى الحديث ، وهو فى هذه الملحمة يصوّرُ نماذجَ مِنْ أبطالِ عَمّانَ عَبْرَ التاريخِ وَمِنْ هؤلاء الأبطال : الصِّلْتُ بْنُ مالِكِ الحُرُوصيِّ ، الذى تُصَدِّى للنصارى عندما اعتدوا على (سُقْطَرى) وفى ذلك يقول :
فَقَتَّى مالِكُ صَلْتُ مَنْ حَمَلَنِى رايةَ الحقِّ وغالَ الْمُعْتَدِينَ .. !
إِذْ عَدْتُ جُرْدُ النصارى غِرَّةً فاستباحَتْ مِنْ سُقْطَرى مايشين(٢)

(١) من قصيدته (إلى البيت الحرام) ص ١٨٢
(٢) من الملحمة التاريخية (ص ١٤٧ ومابعدها) من المرجع السابق .

ويتناول أيضاً في هذه الملحمة التاريخية ، أجمادَ اليعاربة وفتوحاتهم في الشرق ، وهزيمة الصليبيين على أيديهم :

ياملوكاً فتَحُوا الهندَ إلى مَطْلَعِ الصَّيْنِ وظَلُّوا مُوْغِلِينَ^(١)
ويتناول أيضاً : الأجمادَ البحريةَ لأسطولِ عمان^(٢) ، وأجمادَ البوسعيديين مبتدئاً بمؤسس الدولة الأول ، ألا وهو البطل أحمد بن سعيد ، مصوراً غزوه لبلادِ الفرس :

فافخري بأبن سعيد بَعْدَهُمْ أحمدُ القُرْمِ إمامُ المُسْلِمِينَ
مَنْ حَمَى المُلْكَ عن الأعدَا وَمَنْ عَزَّ في الأَمْرِ فَبَزَّ القَاهِرِينَ

ويجعل مسك الختام لهذه الملحمة التاريخية ، تصويرَ أجمادِ جلالة السلطان قابوس المعظم ، فيقول ، مصوراً نهضة عمان على يديه :—

يُحَرِّزُ النُّصْرَ وراءَ النُّصْرِ وثبةُ اللَّيْثِ وَعَفْوُ القَادِرِينَ
فَبَنَاهَا دَوْلَةً يَفْعَلُهُ تَفَخُّ العَصْرِ بها رُوحُ الجَنِينَ
يَكْتُبُ التاريخُ مِنْ أجمادِهَا أسطراً في جبهةِ الحمْدِ تَرْيَنُ^(٣)

ومن الملاحمِ الوطنيةِ العُمانيةِ التي لها أهميتها أيضاً في الشعر العربي الحديث : المَلْحَمَةُ التاريخيةُ التي ألفها الشاعرُ العُمانيُّ السيدُ هلالُ بنُ بدرِ البوسعيدي ، وعنوانها (النَّزْوِيَّة) وقد قُدِّمَ لها بهذه العبارة (القصيدة عبارة عن مَلْحَمَةٍ شعرية في حوالى مائتين وسبعة أبيات ، يَرَوَى فيها الشاعرُ تاريخَ عُمان منذ أقدم العصور ، وحتى العصر الذي عاش فيه حيث انتقل إلى جوار ربِّه عام ١٣٨٥) ، ومطلعُ هذه القصيدة :

حَيَّ نَزَوَى تحيةَ الخُلُصَاءِ واهِدِ قَوْمِي مودَّتِي وإِحْسانِي^(٤)

وهو في هذه الملحمة يلتقى مع الشيخ عبد الله الخليلي في كثير من الأحداث التاريخية والمواقف البطولية التي وَرَدَتْ في ملحمة الخليلي ، وإن اختلفا بَعْدَ ذلك في أدوات التشكيل الفني ، فهو كزميله ، يتناول أجمادَ اليعاربة ، وكفاحهم الذي تُوجَّ بِطَرْدِ البرتغاليين الغزاة ، وذلك إذ يقول :

(١) ص ٥٦ (من الملحمة السابقة)

(٢) ديوان الخليلي ص ١٥٦

(٣) من الملحمة التاريخية نفسها ص ١٦١ من ديوان الخليلي .

(٤) ديوان السيد هلال بن بدر البوسعيدي — تحقيق محمد علي الصليبي — ص ٢٦٣ ومابعدا —

طَرَدُوا الْبَرْتغَالَ وَاسْتَأْصَلُوهُمْ
وَبَنَوْا جَاهِدِينَ أُسْطُولَ حَرْبٍ
وَمَضَى يَقْطَعُ الْبَحَارَ إِلَى أَنْ
شَهِدُوا فِي عُمَانَ أَطْوَادَ مَجِيدٍ
مِنْ عُمَانَ بِقُوَّةٍ وَمَضَاءٍ ... !
شَقٌّ فِي سَيْرِهِ أَدِيمَ الْمَاءِ
بَلَغَ الْعِزُّ مِنْهُ رَأْسَ الرَّجَاءِ
أَثَرًا خَالِدًا بغيرِ مِرَاءٍ (١)

كما يصور كفاح الشعب العماني لِطَرْدِ الْفُرسِ مِنْ عُمَانَ ، مصوراً بطولية
الإمام أحمد بن سعيد الذي قاد الكفاح ضد المحتلين المفسدين :
وَقَفَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ
لَمْ تَزِدْهُ الْحُرُوبُ إِلَّا وَقَاراً
وَقَفَّةَ اللَّيْثِ مُفْعِماً بِالْإِبَاءِ
فَهُوَ كَالطُّودِ فِي عُيُونِ الرَّائِي (٢)

ثم يصور جرائم الغزاة مِنَ الْفُرسِ فيقول :
عَاثَ الْفُرسُ فِي عُمَانَ فَسَاداً
سَارَ فُرْسَانُهُمْ عُرَاءَ عَلَى الْخَيْلِ
يَقْطَعُونَ الْبِلَادَ شَرْقاً وَغَرْباً
وَهُمْ يَتَنَ قَاتِلٍ وَقَتِيلٍ
يَالْقَوْمِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْبَلَاءِ
كُسَاةَ الْخَيْزِي وَالْفَحْشَاءِ
هَمَّهُمْ ، كُلِّ فِعْلَةٍ شَتَاءٍ
وَجَرِيحٍ مُضْرِّجٍ بِالْدمَاءِ (٣)

وما أكثر ما يتغنى شعراء عمان المحدثون ببطولية الجندي العماني ، يقول
الشاعر بَذْرُ بْنُ سَالِمِ بْنِ حَمُودِ السَّيَابِي — في قصيدة (الجندي المناضل) :
شَمِّرِ السَّاعِدَ وَاحْمِ الْبَلَدَا
شَمِّرِ السَّاعِدِ وَاضْرِبْ كُلَّ مَنْ
يَا جُنُودَ اللَّهِ سِيرُوا قَدْماً
يَا جُنُودَ النَّصْرِ .. نَصراً دَائِماً
يَكُمُ قَدْ حَقَّقَتْ آمَالُنَا
وَأَنْبِي فَوْقَ الشَّمْسِ حَصِناً لِلْهُدَى
سَوَّلَتْ نَفْسٌ لَهُ بِالْإِعْتِدَا
يَكُمُ الْحَقُّ غداً مُسْتَجِداً .. !
فَعِمَانُ الْيَوْمَ تَغْلُو الْفِرْقَادَا
وَبِكُمْ دَكَّتْ صُرُوحاً لِلْعِدَا (٤)

ويضيق المجال عن ذِكْرِ المزيد من القصائد والمقطعات التي تصور بطولية
الجندي العماني ، ويُمكنُ لِمَنْ يريد المزيد منها الرجوعُ الى دواوين الشعراء
العمانيين ، وللشاعر سالم الكلباني اهتمامٌ بذلك اللون ، وكذلك نجد هذا

(١) — ص ٢٦٣ من المرجع السابق —

(٢) المرجع نفسه — الملحة التروية ص ١٦٤

(٣) المرجع نفسه — المكان نفسه

(٤) جريدة عمان — عدد الثلاثاء ١٦ من ديسمبر ١٩٨٦ م

الاهتمام واضحاً لدى الشاعر محمود الخصبى في ديوانه (أوراق من شجرة المجد) ومن ذلك قصائده (الله أكبر) (١) و (عاشت عُمان) (٢) و (تحية إلى الجندي العماني) (٣) و (نشيد الجندي العماني) (٤) .

(جـ) قضايا الأمة العربية والعالم الإسلامى في العصر الحديث :

ولعلَّ مِنْ حَقِّنا في بداية حديثنا عن أصداء هذه القضايا في الشعر العماني الحديث ، أن نُثيِّرَ هذا التساؤل .. تُرى .. ما المَعزَى الكامن وراء اشتراك غالبية الشعراء العرب المحدثين في تناول القضايا العربية المصيرية ، على الرغم من اختلافهم في المتابع الثقافية ، والاتجاهات السياسية والفلسفية ؟؟

لعلَّ المَعزَى وراء هذه الظاهرة الأدبية ، أن الوحدة العربية كامنّة في ضمير هذه الأمة العربية ، قد تَطَعَى عليها أحداثٌ معيّنة فَتَطْمِسُهَا ، ثُمَّ إذا بعواصف الأحداث مرّةً أُخرى ، تُكشِفُ عن مَعْدِنِهَا الأصيل ، وتُزِيحُ عنها الأتربة ، فتَعُودُ قُوَّةً هادِرةً تتحدّى الحواجز والسدود ، وتُعَصِّفُ بالمسافات والأبعاد .. ولعلَّ هذه الحقيقة تُدْعَوُنَا إلى تأمّل دور الشعر العربى الحديث ، في دَعْمِ مسيرة الوحدة العربية ، وإلى وجوب دراسة التيارات الأدبية باتجاهاتها الفكرية والفنية المشتركة بين أقطار الوطن العربى ، وأرى أن مناهج الأدب الحديث في جامعاتنا ينبغي أن تهتمَّ بِمِثْلِ هذه الدراسات الأدبية العربية المشتركة التى لا تقتصر على قُطْرٍ عربى واحد ، بل تتناول التيارات المُشتركة بين أبناء الوطن العربى كلّهِ (٥) .. !

ولعلَّ أخطرَ قضايا العروبة المصيرية التى اهتم بها الشاعرُ العمانيُّ الحديثُ ، كما اهتم بها شعراء العالم العربى القضايا الآتية :

(أ) قضية فلسطين :

ومن أبرز الشعراء العمانيين الذين تناولوا مأساة فلسطين المحتلة ، وجُرح

(١) ديوان : « أوراق من شجرة المجد » ص ١٠٣

(٢) المرجع السابق ص ١١٩

(٣) المرجع السابق ص ١٢٣

(٤) المرجع السابق ص ١٢٨

(٥) انظر تقديمى لكتابتى (التيار التراثى فى الشعر العربى الحديث) ص ٦

وتنتهى هذه (الكوميديا) المأساوية فى هذه القصيدة .. بهذه الصورة
الرهيبية .. لقد أصبح حلّ القضية الفلسطينية يتوقف على الخطبِ العصماء :-
وتربّعوا عرش الخطابة كلُّهم
كلّ المحافل صارت تحفظ الخطبَا

وتعنفُ صوره الساخرة من هذه الكوميديا المأساوية .. فتقطر دما
ودموعاً .. فى قصيدته : (جرح الكرامة) حين يرى أن جرح الكرامة فى
فلسطين اللاجئة .. لن يُعالج بالكلام والخطب ، وسيظلّ وصمة عار حتى
يعود الشعب الفلسطينى الى وطنه :

ويضيح في الليل الأنين
صوت البراءة والشقاء
صوت الضحايا المتعيسين
والجرح يخفر من جديد
جرح تأصل من سينين
جرح تعدد بالكلام
قولاً يوعد الواعدين
جرح الكرامة لم يزل
وصماً على هام الجبين
جرح يضيح ويستغيث
بروح قوم جامدين
ونزيفه ... لا لن يجف
إلا بعسود .. الغائين ..
وبالدماء يسطر التاريخ
اسم اللاجئين^(١)

ويلتقى معه (مع الشاعر هلال العامرى) فى الالتقاء الفنى على التعبير
بالصّور والبناء الدرامى ، الشاعر المهندس / سعيد الصقلاوى ، وقد رسم
ذلك الشاعر لوحة فنية لمذابح (صابرا وشاتيلا) وإن كان تقيده بالقافية

(١) المرحع السابق ص ٥٩ ، ٦٠

الموحدة ، قد حَدَّ من انطلاق هذه اللوحة ، نتيجةً لبعض القوافي المتكلفة حيث يقول^(١) :

وَبَلْبَنَانٍ اشْتَعَلَتْ أَحْزَانُ ، قَدْ فَتَتْ قَلْبَ الصَّخْرِ
الناشِفِ
طِفْلٌ يَتَكِي بَيْنَ الْأَنْقَاضِ يُفْتَشُّ عَنْ صَدْرِ رَائِفٍ
عَنْ أُمِّ تَحْضُنُهُ .. عَنْ أَخِي تَضَحُّبُهُ .. تَحْتَ الْأَرْزِ الْوَاقِفِ
عَنْ كِسْرَةِ خُبْزٍ .. يَأْكُلُهَا .. عَنْ قَطْرَةِ مَاءٍ مِنْ بَرْدَى
تُطْفِئِي ظَمًا لَاهِفٍ .. !
عَنْ أَرْوَاقِهِ قَدْ رَصَّعَهَا أَحْلَامًا بِالْأَلْوَانِ
وَعَنْ بَيْتٍ سَالِفٍ .. !
وَعَجُوزٌ فِي شَاتِيْلَا .. صَاخَتْ وَاعِزْرَضَاهُ
فَلَا أَحَدٌ لَبَّى الْهَاتِفِ
« شَارُونَ » يَلْعَبُ تَيْطَرُنْجَا بِجَمَاجِمِ أَطْفَالِ عَزْلٍ
وَالْعَالَمُ .. تَمْتَلُ وَاقِفٌ .. !
يَتَلَذَّذُ « يَجْنُ » فِي قُدْسِ الْأَقْدَاسِ بِخَمْرِ دِمَانَا
غَوْلًا مَسْعُورًا صَالِفٍ .. !
أَقْسَمْنَا آفَافَ الْمَرَاتِ .. وَمَا أَحَدٌ مِنَّا صِدْقًا حَالِفِ
قُحَا .. صِرْنَا فِي خَارِطَةِ الْأَمْجَادِ وَصَرْنَا
عَارًا فِي الزَّمَنِ الْعَاصِفِ .. !

(جـ) بطولة الشعب المسلم في أفغانستان :-

وَمِمَّا يَوْسَفُ لَهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ شِعْرَانَا الْمَعَاصِرِينَ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، لَمْ يُؤْلُوا
قَضِيَّةَ الْجِهَادِ الْإِسْلَامِيِّ الرَّائِعِ فِي أَفْغَانِسْتَانِ ، مَا هِيَ جَدِيدَةٌ بِهِ مِنْ اهْتِمَامٍ .. بَيْنَمَا
هَذِهِ الْقَضِيَّةُ الَّتِي أَعَادَتْ إِلَى الْأَذْهَانِ بَطُولَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ ،
يُمْكِنُ أَنْ يَجِدَ فِيهَا الشُّعْرَاءُ الْعَرَبُ وَحِيًّا لِلْمَلَايِمِ شَعْرِيَّةً رَائِعَةً ، لَوْ كَانَ الْحِسُّ
الْإِسْلَامِيُّ لَدَيْهِمْ فِي مُسْتَوَى هَذِهِ الْبَطُولَاتِ الْمَلْحِمَةِ ، وَلَعَلَّ قَصْبِدَةَ الشَّاعِرِ
سَعِيدِ الصَّقْلَاوِي (أَتَيْنَ) مِنْ أُبْرَزِ الْقَصَائِدِ الَّتِي صَوَّرَتْ بَطُولَاتِ الْمُحَاهِدِينَ
الْمُسْلِمِينَ أَفْغَانِسْتَانِ ، وَفِيهَا يَقُولُ :-

(١) من قصيدة « أين » ص ١١٢ وما بعدها — من ديوان (أت لي قدر) —

الْقُدْسِ النَّازِفِ فِي قَلْبِ أُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ : الشَّاعِرُ سَالِمُ الْكَلْبَانِي ، وَشِعْرُهُ فِي هَذِهِ الْمَأْسَاةِ يَتَسَيَّمُ بِالتَّدْفِيقِ الْعَاطِفِيِّ ، وَيَعْتَمِدُ أحياناً عَلَى الْبِنَاءِ بِالصُّورِ ، لِأَعْلَى اللَّهْجَةِ الْخَطَّابِيَّةِ التَّقْرِيرِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ ، وَلِتَتَأَمَّلَ هَذِهِ السَّمَاتِ الْفَنِيَّةُ فِي تَصْوِيرِهِ مَأْسَاةَ الْقُدْسِ :

سُلِبَتْ قُدْسُنَا وَنَحْنُ نَرَاهَا بُعِيُونِ مِنَ الدَّمُوعِ مِلَالٍ
سُلِبَتْ حِينَمَا تَتَعَبُ فِينَا مَنَّهُجُ الْإِخْتِلَافِ وَالشَّخْصَاءِ
فَصَحَّوْنَا مِنْ بَعْدِ نَوْمٍ عَمِيقٍ فِي نَعِيمِ اللَّذَائِدِ الْبِلَهَاءِ^(١) !

وإنَّهَا لِمَأْسَاةٌ كُبْرَى أَنْ يُضَيِّعَ الْعَرَبُ الْمَعَاصِرُونَ ، قُدْسَ الْإِسْلَامِ !! قُدْسَ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :

نَحْنُ مِنْ وَطَدِ الْعُرُوبَةِ فِي الْقُدْسِ وَأَعْلَى لَهَا عَظِيمَ الْبِنَاءِ
نَحْنُ فُتَّاحُهَا قَدِيمًا .. وَأُخْرَى أَنْ تُعِيدَ افْتِتَاحَهَا لِلْبَقَاءِ
فَأَبُو خَفْصِ الْعَظِيمِ وَعَمَرُو لَمْ يَزَالَا فِي لَحِينَا وَالدَّمَاءِ^(٢) .. !

وإنَّهَا لَسَدَاجَةٌ عَجِيبَةٌ أَنْ يَظُنَّ الْمُتَقَاعِدُ مِنَّا عَنْ نَصْرَةِ فِلَسْطِينَ ، أَنَّ الذَّنْبَ الصَّهْيُونِيَّ سَيَقْتَصِرُ عَلَى التِّهَامِ الْقُدْسِيِّ فَقَطْ وَفِلَسْطِينَ فَقَطْ ، وَيَنْسَوْنَ أَنَّهُ يَوْمُنُ بِهَذَا الشُّعَارِ : « مِنْ الْفِرَاتِ إِلَى النَّيْلِ » :

حَسِبُوا أَنْ خَصْمَهُمْ حِينَ يُنْهَى الْقُدْسُ يُنْهَى تَكَرَّرَ الْإِيذَاءِ
مَادَوْوْا أَنَّهُ يَرَى النَّاسَ طَرَا كَقَطِيعِ الْأَنْعَامِ فِي الصَّحْرَاءِ .. !
دَأَّيَهُ الظُّلْمُ وَالتَّوَسُّعُ دَوْمًا حَيْثَا حَلَّ ، حَلَّ رَحْفُ الْوَبَاءِ^(٣)

وَيُعْتَبَرُ الشَّاعِرُ السَّيِّدُ هَلَالُ بْنُ بَدْرِ الْبُوسَعِيدِي مِنْ أَهْبَزِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ أَرْقَتْهُمْ مَأْسَاةُ فِلَسْطِينَ ، وَلِذَلِكَ نَرَاهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ قَصَائِدِهِ يُهَيِّبُ بِأَبْنَاءِ الْعُرُوبَةِ أَنْ يَنْهَبُوا يَدًا وَاحِدَةً لِيَعُوْثَ أَبْنَاءُ فِلَسْطِينَ ، بِكُلِّ مَا تَجُودُ بِهِ أَنْفُسُهُمْ ، وَتَحْرِيرُهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ لِيَتَعَوَّذَ إِلَيْهَا أَصَالَتُهَا^(٤) ، إِنَّهُ يَسْخَرُ — كَمَا سَخَرُ أَبُو ثَمَامٍ

(١) الدُّوَّةُ الْأُولَى لَشُعْرَاءِ دَوْلِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيَّةِ — ص ١٢٠ وَمَابَعْدَهَا مِنْ قَصِيدَةٍ (دَعْوَةٌ إِلَى تَوْحِيدِ الْجُودِ وَجَمْعِ الشُّمْلِ) وَيَلَاظُ أَنَّ الشَّاعِرَ حَوْلَ هِمَّةِ الْوَصْلِ فِي كَلِمَةِ « الْإِخْتِلَافِ » فِي الْبَيْتِ الثَّانِي — إِلَى هِمَّةِ قَطْعِ — .

(٢) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ — الْقَصِيدَةُ نَفْسُهَا —

(٣) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ — الْقَصِيدَةُ نَفْسُهَا —

(٤) دِيْوَانُ السَّيِّدِ هَلَالِ بْنِ بَدْرِ الْبُوسَعِيدِي — الْمَقْدَمَةُ يَقْلُمُ الْخَفَقَ مُحَمَّدُ الصَّلِيلِيُّ ص ٤

مِنْ قَبْلُ — مِنْ أَسْلِحَةِ الْخُطْبِ والكلمات — بل .. وتأتى قصيدةً مِنْ أعظم قصائده في هذا المجال في إطار المعارضة الفنية لأبى تمام ، وأغنى بهذه القصيدة ، قصيدةً بعنوان (طالب الحق) يقول فيها :

أَكْثَرْتُ فِي الْقَوْلِ بَلْ أَكْثَرْتُ فِي الْخُطْبِ	أَقْلِلْ — فَدَيْتُكَ — وَاغْمَلْ يَا أَخَا الْعَرَبِ
جَرَدْتُ سَيْفًا .. وَلَكِنْ لَامِضًا لَهُ	كَأَنَّمَا السَّيْفُ مَنْسُوبٌ إِلَى الْخَشَبِ
بَنَى الْعَرُوبَةَ .. هَلْ طَابَ الْمَقَامُ لَكُمْ	وَفِي فَلَسْطِينَ أَشْلَاءٌ عَلَى لَهَبِ
مَنْ لِلْفَتَاةِ إِذَا مَا هِيضَ جَانِبُهَا	وَمَنْ لِشَيْخٍ قَعِيدٍ عِنْدَهَا وَصَبِي
يَسْتَصْرِخُونَ بِكُمْ .. هَلْ مُنْقَذٌ لَهُمْ	مِنْ الْفُطَايِحِ وَالتَّنْكِيلِ وَالْوَصَبِ ..
سَمِعْتُ جَفَجَعَةً مِنْكُمْ فَهَلْ طَحَحْتُ	تِلْكَ الرَّحَى أَمْ غَدْتُ فِي كَفِّ مُضْطَرِبٍ (١)

والشاعر في هذه القصيدة يعارضُ أبَا تَمَّامَ ، في قصيدته التي مطلعها :
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

(ب) مأساة بيروت :—

وبيروت العريضة المناضلة .. بيروت (صابرا وشاتيلا) بيروت الجميلة الساحرة التي تحوّلت تحت ضغوط المؤمرات الاستعمارية إلى ساحات للموت والدمار ... ! بيروت هذه كان لها أثر بارز في الشعراء العمانيين المحدثين ، ولعل من أبرزهم : الشاعر هلال العامري ، الذي صور مأساتها في أكثر من قصيدة غاضبية في شعره ، ومن هذه القصائد : قصيدة (الفقيدة) التي اعتمد الشاعر فيها على تمكّنه من فن الصورة الساخرة اللاذعة أو فن (الكاريكاتير) .

ذَبْحُوكِ يَا بِيروثُ
وَاجْتَمَعُوا لِيَشْرُبُوا
تَخْبِيًا !
دَمُّ الْأَطْفَالِ
صَارَ نِيْلًا
يُسْكِرُ الْعَرَبَا (٢) .. !

(١) المرحع السابق ص ١٠٥

(٢) القصيدة السابقة نفسها — ص ٥٦

الْمَدُّ الشَّيْطَانِيَّ الْأَحْمَرُ يَزْخَفُ كَالسَّيْلِ الْجَارِفِ .. !
والإنسان العربيُّ المُسْلِمُ يَهْرَبُ كَالْقِطِّ الْخَائِفِ .. !
وَعُرُوبُنَا وَكَرَامَتُنَا تَتَمَرَّغُ فِي وَحْلِ جَائِفِ
عَرَبَاتِ الْبَغْيِ تَمَرَّقُنَا نَتَّقَا لَاتُبْقِيَ تَالِدَ أَوْ طَارِفِ
فِي أَفْعَائِسَتَانِ ... نَتَطَايَرُ أَشْلَاءَ وَدِمَاءَ رَاعِفِ
فِي أَرْتِيرِيَا أَمْ تُكَلِّى .. عَيْنٌ خَيْرِي .. قَلْبٌ رَاجِفِ
فِي الصُّومَالِ الْحُرِّ اهْتَرَأَتْ أَرْضٌ وَهَسَوَى صَرْخُ
صَرْخِ نَائِفِ^(١)

ومرة أخرى .. تَرَى حرص هذا الشاعر على القافية الموحدة ، يضطره إلى
شئ من التكلف ، يقلل من فنية الصورة ، ويوقف انسياب البناء التعبيري ،
ويجعل القارئ دائماً ، يستيقظ من سحر الصورة في نهاية كل بيت ، على
كلمات صارخة ، تقول له : قف هنا .. أنا القافية (جائف — راعف —
نائف)

(د) الدعوة إلى وحدة الصف العربي والإسلامي :-

إن هذه المآسي التي تحاصر المسلمين في أفغانستان وفلسطين وبيروت ، هي
مجرد مِثَالٍ ، أما المأساة الكبرى التي تفرغت عنها كل هذه المآسي ، فهي المأساة
التي نشأت في غياب وحدة الصف العربي والإسلامي ، حين تناسى
المسلمون ، نداء القرآن الذي قامت عليه دولتهم الأولى .. نداء « إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » ونداء « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا » وراخوا يَسْتَوْرِدُونَ أَلْوَاناً
من الشعارات و (الأيديولوجيات) التي أشعلت بينهم نيران العداوة
والبغضاء ، ومن نماذج الشعر العماني الجميلة التي تُصَوِّرُ مَا لَ إِلَيْهِ الصَّفُّ
العربيُّ الإسلاميُّ مِنْ وَهْنٍ وَضَعْفٍ نَتِيجَةً لِهَذِهِ الصَّرَاعَاتِ : قصيدة للشاعرة
سعيدة بنت خاطر الفارسي ، تقول فيها ، مصورة الاقتتال الدامي بين شعبين
مسلمين :-

هِنَا أَمْ يُقَطَّعُ لَحْمٌ عَلَيَّ وَجَعَفَرُ يَمْضَعُ لَحْمَ عَلَاءَ
وَشُطَّانَ أَرْضِي سَقَّتْهَا الْمَنَائِيَا أَلُوفُ الضَّحَايَا مِنَ الْأَبْرِيَاءِ .. !

(١) القصيدة السابقة نفسها ص ١١١

تَلْتَهَا الْمَدَائِنُ تُصْرُخُ صَرَاعِي
فَهَلْ بَعْدَ هَذَا تُرِيدُ شَرَّاساً
كَسْتَنِي الهمومُ بِقَلْبٍ ذِيحِجْ
ذَهَلْتُ .. هَرَبْتُ شِمَالاً وَشَرْقاً
أَسِفْتُ عَلَيَّ غَابَةِ الْأَرْزِ تَذْوِي
يُولُونِ حِيناً .. يُزْغِرِدْنَ حِيناً
شَهِيدِ الْمَعَالِي وَرَمَزِ النُّضَالِ

وَيَبْتَهِلُ الشاعِرُ مُحَمَّدُ الْخَصِيصِي ، إِلَى اللَّهِ ضَارِعاً يَدْعُوهُ أَنْ يُوَحِدَ صَفُوفَ
الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ :-

يَا رَبِّ .. إِنِّي قَدْ سَأَلْتُكَ ضَارِعاً
جَمِّعْ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعِهِمْ
فَالْقُدْسُ يَزْرَحُ تَحْتَ وَطْءِ الْغَاصِيينَ
وَالْفُرْقَةُ الْكُبْرَى ثَعِيثُ غُبَارِهَا
وَأَنَا أَرَى الْإِسْلَامَ فِي وَضْعٍ مَهِينٍ
كَيْ يَسْخَرُوا كُلَّ الطُّغَاةِ الظَّالِمِينَ
وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى يُدْنِسُهُ اللَّعِينُ
فَتَقِيْمُ سَدَا تَيْنَ كُلِّ الْمُخْلِصِينَ (٢)

إِنَّ خِلَاصَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ لَنْ يَكُونَ إِلَّا بِصُحُوةِ إِسْلَامِيَّةٍ ، يَحْمِلُ رَايَتَهَا
بَطْلٌ مُسْلِمٌ مُعَاصِرٌ مِنْ طَرَازِ صِلَاحِ الدِّينِ ، هَكَذَا يَنَادِي الشاعِرُ سَعِيدُ
الصَّفَلَاوِي :

مَنْ يَحْمِلُ سَيْفَ صِلَاحِ الدِّينِ ، وَيَحْمِلُ قَلْبَ
الْفَارُوقِ الْعَارِفِ
مَنْ يَحْمِلُ عَزَمَ عَلِيٍّ أَوْ حَزَمَ الصُّدَيْقِ الْمِقْدَامِ
النَّاصِفِ
مَنْ يَمْلِكُ وَثْبَةَ طَارِقٍ ، أَوْ سَعْدٍ ، مَنْ يُطْلِقُ
رَشَاشاً قَاصِيفِ
هَلْ يُنْكَرُ خَالِدٌ أَنْ يَأْتِيَ ، أَوْ عَمْرٌأَ يَرْمِي
صَاروخاً نَاصِفِ
هَلْ يُنْكَرُ .. تُشْرِقُ .. أَقْمَارٌ فِي لَيْلٍ مَحَبَّتِنَا
أَتَرَى .. يَهْمِي غَيْثٌ وَكَيْفُ

(١) مِنْ قَصِيدَةِ بَعْوَان (رَمَضَانَ يَعُودُ عَرِيّاً) بَشَرَتْ بِالْمُلْحَقِ التَّفَاقِ (حَرِيدَةُ عُمَانَ — الْخَمِيسَ ٢٩
مِنْ مَآيُو ١٩٨٦ م) .

(٢) مِنْ قَصِيدَةِ بَعْوَان (أَهْلًا بِقُدُومِكَ يَا رَمَضَانُ) بَشَرَتْ بِحَرِيدَةِ عُمَانَ (الْخَمِيسَ ٨ مِنْ مَآيُو ١٩٨٦ م) .

يامأساة الإسلام الكُبْرَى ... ياوجع
العُمَرِ التَّارِفِ
عن سَرِّدِ جراحِكَ قد عَجَزَتْ كُتُبُ
واحتارُ بها الواصِفُ

وأخيراً فما قَدَّمْتُهُ مِنْ نماذج الشعر العُماني الحديث في هذه الدراسة ،
لا يمثل إلا محاولة لدراسة تيار الشعر الوطني العُماني الحديث ، وديوان الشعر
العُماني الحديث حافلٌ بِعَدَدٍ كبيرٍ من الشعراء المبدعين الذين تَعَنَّا بالرؤية
الوطنية الإسلامية في أشعارهم .. !

ولعلني أعود مرة أخرى ، لتقديم نماذج أخرى لشعراء آخرين ، قدموا في
أشعارهم تصورهم للرؤية الوطنية المعاصرة ، وبخاصة بعض الشعراء المعاصرين
الذين يمثلون تيار (الحداثة) في سلطنة عمان . وأختتم هذه الدراسة بهذين
البيتين اللذين يُوجِزان مفهومَ الرؤيا الوطنية في الشعر العُماني الحديث ، يقول
الشاعر سليمان بن خلف الخروصي :

يَانْهَضَةُ قَامَتْ عَلَى أُسُسِ الْعِلَا وَلَهَا بِأَعْلَى الْفَرْقَدَيْنِ مَقَامُ
قَامَتْ وَقَابُوسُ الْمَلِكِ يَقْوُدُهَا وَسِلَاحُهَا الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ^(١)

وهذين البيتين أيضاً للشاعر سالم بن علي الكلباني ، الذي يتغنى بالانتماء
الإسلامي :

أَنَا حُرٌّ عَرَبِيٌّ مُسْلِمٌ وَالْوَفَا دَوْمًا شِعَارُ الْمُسْلِمِ
إِنْ أَكُنْ أَمْشِي عَلَى هَذَا الثَّرَى فَطُمُوحِي فَوْقَ هَامِ الْأَنْجَمِ^(٢)

وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ ،،،

(١) ديوان (أنت لي قدر) من قصيدة (أنيس) ص ١١٣ وما بعدها .

(٢) من قصيدة بعنوان (النهضة الحديثة) ص ٢٠٠ من « الندوة الأولى لشعراء دول الخليج العربية » .

(٣) المرجع السابق — من قصيدة بعنوان (أنا حر عربي مسلم) ص ١٦١

المبحث الثالث

عن
الغربة والحب
في شعر هلال العامري

لعل القضية الرئيسية التي تدور حولها قصائد الشاعر : هلال العامري ،
هي قضية الغربة المرتبطة بسباحاته الروحية في آفاق الجمال التي يلتقي فيها
جمال الطبيعة بجمال البشر .. !

وإذا كانت مشكلة الغربة إحدى ملامح الأدب العربي المعاصر ، فقد كانت
أيضا ملمحا بارزا في تراثنا العربي القديم ، فابن رشيق في كتابه (العمدة)
حين يتحدث عن ظاهرة الأطلال في الشعر الجاهلي ، يقول :

« فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال ، وتوقع البين ، والإشفاق
منه ، وصفة الطلول والحمول ، والتشوق بحنين الابل » (١) .

كما يرى (الأمدى) في « موازنته » أن النسب في مقدمة القصيدة الجاهلية
بما فيه من بكاء على الأطلال ، وحديث عن الحبيبة الراحلة ، إنما هو تعبير عن
الحنين إلى الوطن (٢) وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض مصادر التراث العربي التي
تناولت تجربة الغربة ومنها : « المنازل والديار » لأسامة بن منقذ ، و
« محاضرات الأدباء ومحاورات الشعر والبلغاء » لأبي القاسم حسين بن محمد
الراغب الأصبهاني ، و « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، ومقامات بديع
الزمان الهمداني ، ومقامات الحريري ، ثم كتب الصوفية التي تناولت تجربة
الاغتراب الصوفي ، وذلك مثل « الرسالة القشيرية » وغيرها (٣) .

ولعل أهم مشكلة معاصرة يتناولها كتاب المسرح المعاصر ، هي مشكلة
العالم المُحاصرِ بالموت والغربة ، فهم يَرَوْنَ أنهم يعيشون في جزر محاطة
بالموت والعزلة ، وكل الجسور التي تصلهم بالناس قد فُجِّرَتْ ، ومن ثمَّ فَهْمُ
يعيشون معزولين عن الناس في عالم جحيمي ، يعانون من الوحدة والألم
والسأم ، وقد كتب (يونيسكو) كثيرا عن المسرحيات ، مثل : « المغنية
الصلعاء » و « الدرس » و « الكراسي » و « المستأجر الجديد » و « قاتل بلا
أجر » وكلها تتحدث عن الموت والغربة ، وكلها تقف في منتصف الطريق

(١) العمدة في صناعة الشعر وبقده — ج ١ ، ص ٩٨

(٢) انظر : الموازنة بين أبي تمام والبحر — للأمدى — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد — الطبعة
الثالثة ، ج ١ ، ص ٤٠٩

(٣) انظر : تيارات معاصرة في الشعر الجاهلي ، ص ١٥٦ ، للدكتور/سعد دعبس

حيث أن كل الطرق مسدودة ، ولا أمل في الحصول على أى معنى للحياة، وفي هذه المسرحيات نجد الشخصية تتصرف بحيث تجرى على لسانها الألفاظ هامة تتساقط كالأجرام ، فتخفق في تحقيق جوهرها المدنى ، كما تخفق لغتها فيما وضعت لأجله من التجاوب ، وتبادل المشاعر والأفكار ، وهذا الإخفاق يقودنا إلى عالم الرعب ... رعب الصمت المعنوى للفراغ الفسيح .. ! فالصوت كالصمت ، لأنه يقود أخيراً .. إلى يأس وصمت^(١) .. !

فأين تقف قضية الغربة لدى شاعرنا هلال العامرى من هذه الاتجاهات الاغترابية ؟

إن الإحساس الحاد بقسوة الغربة في شعره يقابلنا منذ أول لحظة يستقبلنا فيها ، فالشاعر لا يمهلنا ريثما نتجول قليلاً .. في واحات شعره أو غاباته الكثيفة .. بل يفاجئنا عند المدخل الرئيسى لعالمه الشعرى ، بلافتة تقول لنا : إنكم ستعانون مع الشاعر رحلة اغتراب إنسان عربى عُماني تتقاذفه أعاصير الغربة .. في زورق عربى ... وفي إطار رؤية عربية .. ومعروف أن الانسان العُماني قد ارتبط منذ أقدم العصور بالبحر والأعماق والموج والغربة والرحيل ، وقد آن لنا أن نبدأ معه رحلة اغترابه .. فأى مفهوم يقدمه للغربة ، وأى رؤية يقدمها لها ؟

ان الغربة في شعر هلال ، ترتبط في كثير من قصائده بالحب ، والغربة المرتبطة بالحب لها مصدران : أحدهما تراثى ، والآخر حديث ، أما التراثى ففي شعرنا العربى منه الكثير والكثير ، نجده في الشعر العربى القديم مثلاً في شعر عنتره ، والمرقس الأكبر ، وعروة بن حزام ، ولنكتف هنا بنموذج لعروة بن حزام يقول فيه :

أَبَا لَيْثٍ مِنْ عَفْرَاءَ تَنْتَحِبَانِ ؟	أَلَا يَاغُرَابَى دِمْنَةَ الدَّارِ نَحْبُرَا
بَلْخِمَى إِلَى وَكْرِيكَمَا فَكُلَا نِي	فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَاتَقُولَانِ فَانْهَضَا
وَلَا تَهْضِمَا جَنْبَى وَأَزْدَرْدَانِي	كُلَا نِي أَكُلَا لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ
وَلَا يَأْكُلَنَّ الطَّيْرُ مَائِدَرَانِي ^(٢)	وَلَا تُعْلِمَانِ النَّاسَ مَا كَانَ قِصَّتِي

(١) المدخل الى النقد الأدبى الحديث — للدكتور/ محمد عيسى هلال ص ٧٥٨

(٢) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، ج ١ ، ص ٢٦٤

وهكذا نجد (مجنون بنى عامر) يعانى لونا من الغربة الروحية ، والذهول الدائم والانفصال عن العالم ، حيث كان — كما يروى صاحب الأغاني — يهيم شاردأ تائها فى الفيافي والبرارى مع الوحش ، لا يأكل إلا مما تنبت الحقول من بقل ، ولا يشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها ، حتى طال شغل رأسه وجسده ، وألفته الظباء والوحش ، وأصبحت لاتنفرد منه (١) .. !

أمّا المصدر الآخر لتيار الغربة المرتبطة بالحب ، فهو التيار الرومانتيكى ، ذلك لأن الرومانتيكيين حين يتحدثون عن حبهم يمتزجون بالطبيعة ، ويتمنون الموت ، ويعانقون الغربة ، ويأنسون الى العزلة ، فعين نقرأ قصيدة (البحيرة le lac) للامرتين ، نجد شاعراً ، متوحدأ مع الطبيعة ، متعشقا للفناء والأبدية ، مغتربأ فى زمانه ومكانه ... ! يقول (لامرتين) : « وهكذا نظل مندفعين نحو شيطان جديدة نضرب فى ليل الأبد إلى غير عودة ، أفلا نستطيع أبداً فوق محيط السنين أن نرسي القلاع يوماً (٢) .. ! » .

وهذا الاتجاه الذى تتمزج فيه الغربة بالطبيعة والحب والموت يبدو فى قصائد أخرى له منها : « العزلة » و « الوادى » و « الشاعر يموت » (٣) .

ولكن مشكلة الغربة عند « هلال العامرى » — على الرغم من أننا نجد فيها أحيانا ظلالا حزينة يائسة متأثرة بالتيارين السابقين — فإننا نجد فيها أحيانا أخرى ظلالا جديدة ، حيث نلمح فى تجربته ، تجربة الغربة ، استمرارية الأمل فى الخروج من دائرة الغربة التى تحاصر الشيطان والموائى ، على شراع سحرى ، هو شراع الحب — وذلك على الرغم من استمرارية عوامل الإحباط واليبس والرحيل ، ولعل من صور الحب التى أعجبتنى فى ديوانيه ، تلك الصورة التى يعمق فيها مضمون الحب ويتسع ليقترب من إشارات الحب الصوفى .. أو الحب الكونى الشامل .. البعيد عن إثارات الغريزة ، والجوانب الحسية ، ومن قصائده التى تمثل ذلك الاتجاه قصيدة بعنوان : « تهاجر عيناك بأخيلتى » (٤) .

(١) الأغاني ، ج ٢ ، ص ٤٠ ومابعدا .

(٢) Michel Berveiller L'oeuvre de L'amartine P 22 (Hachette) Paris 1952

(٣) انظر « تيارات معاصرة فى الشعر الخاهلى — الفصل الثالث — مشكلة الموت — ص ٢٥٤ ومابعدا للدكتور / سعد دعيس .

(٤) من قصائد ديوانه الأول (هودج العرة) ص ٩ . ١

ففى هذه القصيدة ، نلمح شاعرا يعانى من مأساة التمزق بين : التوحد عبر اللقاء ، والانشطار عبر أعاصير الغربة والرحيل ، إنه يعانق فى أعماقه حُباً تلغى فيه الشائنة بين الحبيب وحبيبته ، ويتم فيه التوحد بينهما .. بل يتم فيه أيضا التوحد بينهما وبين الطبيعة .. ثم نرى هذا الحب ينتهى توحدته والتحامه .. فجأة بالانشطار والتفتت وهنا .. عنصر (التراجيديا) أو المأساة .. !

والشاعر يهْدِ لِصُورِ التوحد والالتحام بهذه الصورة فى قوله (يامن تحيا ضمنيًا ضمني) ثم يفرّع من هذه الصورة الشاملة صُوراً جزئية أخرى للتوحد ، حيث نرى الحبيبة تعيش فى خياله ، وتقاسمه التفكير ، ويرى سهره وأحزائه ينعكس كل منهما فى عينها .. ، ويراها معه فى ليلالى الغربة تحمل أمتعته ، وحين تسافر عيّاها ، فهما يسافران فى عينيه ، وهى تشد الرحال فى مَنَاهات الغربة لا تعباً بالأعاصير والطوفان ، ولتأمل الأبيات التى تقدم لنا صورَ التوحد ، والالتحام :

يَا مَنْ تَحْيَا ضِمْنِي
وَأَعِيشُ مُسَافِرُ
يَا مَنْ تَجْتَاحُ مُخَيَّلَتِي
وَتَقَاسُمُنِي التَّفَكِيرُ
يَا مَنْ بَانَ بِمَقْلَتِهَا
سَهْرِي وَصَدَى الْأَحْزَانِ
يَا مَنْ تَحْمِلُ أَمْتَعَتِي
تَحْتَ الْجَوِّ الْمَاطِرُ
قَدَرِي إِنْ شِئْتَ
وَمَا قَدَرِي إِلَّا أَنْتَ
فَكَيْفَ أَكَابِرُ
يَرْتَعَشُ اللَّيْلُ بِعَيْنِيكَ
يُورِقُنِي
وَيَزِيدُ الْغُرْبَةَ وَالْأَشْجَانَ
وَأَرَى عَيْنِيكَ
فِي عَيْنِي .. تَسَافِرُ .. !

وتشدُّ رَحَالَ العَشَق
ولم تعباً بالريـح
أو الطوفان ... ؟

ويعقب هذه الصور الموحية بالتوحد والاندماج .. يعقبها فجأةً — دون أى فاصل زمنى أو مكانى — صور انشطارٍ وتفتُّتٍ ، وهنا نلمح الطابع التراجيدى .. حيث ذروة المأساة .. حيث السعادة بالتوحد التى تعصف بها فجأةً عواصف التفتت والانشطار ، ولنتأمل هذا الجانب الانشطاري الذى أعقب الجانب التوحدى :

كيف تهاجر عينك بأخيلتى
ويمرُّ شراعُ سفينتهما
دون استئذانٍ
كيف تراها .. تُعبِّرُ
صمتَ الليل
وعُمقَ البحرِ
وتتركنى
وأنا الرُّبَّانُ ... !

وهكذا تنتهى رحلة الحب والغربة فى هذه القصيدة ، بأن يصبح الشاعر أو « الرُّبَّان » فى مواجهة أمواج الحزن والغربة والرحيل .. ! مواجهة انشطار سفينة الغربة بين أمواج الحزن .. وعواصف الغربة والرحيل .. حيث يصبح الرحيل — كما يقول الشاعر فى إحدى قصائده — جزءاً من حياته .. ويصبح الرحيل أيضاً .. كما يقول فى القصيدة نفسها :

ورحيلى هو تاريخ بقاءى^(١)

وفى القصيدة التالية لهذه القصيدة ، فى ديوان « هودج الغربة » تكتمل صورة التوحد التى بدأ رسمها فى القصيدة السابقة ، فإذا كان الشاعر فى القصيدة السابقة ، يرى عَيْنَيْ حبيبته هما اللتان تسافران فى عينيه ، فهو فى القصيدة التالية لها ، ألا وهى (جرح الأمس)^(٢) هو الذى يسافر فى ليل

(١) من قصيدة (أمواك) ص ٥٢ من هودج الغربة .

(٢) من قصائد ديوان هودج الغربة ص ١١

ضفائرها .. ولكن صورة الاندماج والتوحد تنتهى أيضا بالنهاية المأساوية ،
نهاية التفتت والانشطار :

في شفة
تسألنى من أنت ؟
أتراها تستنجد بالماضى
أم تستحلف بالآتى ؟
أم تحرق ذاتى ؟

ان الشاعر فى غربته ، حين يتحد بالحبيبة ، اتحاداً أقرب إلى الوجد
الصوفى ، اتحاد انسان مستغرق فى تأمل الجمال الكونى ، كثيرا ما ترتبط
مواجهته الروحية هذه بالترحد أيضا .. مع الطبيعة .. ولنتأمل صورة لذلك فى
قصيدة (ملهمة الشجر)^(١) حيث يقول :

يا ملهمة الشجر
اشتقت إليك كثيرا
اشتقت لأحضان
فى عينيك الكون

وفى قصيدة أخرى يقول :

استحمتنى إن شئت
فى شواطئ عينى
ففيها الهدوء
فيها الأمان .. !
شواطئ عينى
صيعت لأجلك
وأهداب عينى
تعرف مركب حُبك .. !

وتتكرر صورة التوحد مع الطبيعة مرة أخرى فى قصيدة (ينام العشق
بعينيك)^(٢) حيث ينام البحر بعينى الحبيبة ، وحيث يصبح الموج بعينها ،

(١) المرحع السابق ص ٢٠

(٢) ص ٦٥ من ديوان (هودح العربة) .

روايات تحكى التاريخ :

فالموج . بعينيك . روايات
 تحكى التاريخ وتحفظه .. !
 وتُعَدُّ الأزمان
 نام البحر بعينيك طويلاً
 وتَلَّ اللُّيْل
 دواوين العشق
 جاءت أمواج الحب
 بزورقها
 تبحث عن عينيك
 لتبحر فيها
 تبحث عن أهداك
 تحرسها
 لينام العشق بعينيك
 وتُلْقَى الأحزان
 بعمق البحر ... !

وفي ديوانه الثانى (قطرة فى زمن العطش) نجد تطوراً فى مضمون الغربة المرتبطة بالحب ، فإذا كُنَّا فى كثير من قصائد الديوان الأول وبعض قصائد الديوان الثانى ، نلمس فى حديثه عن الغربة والحب ، قلباً هامساً ، حائراً ممزقاً بين عواصف الغربة والرحيل ، قلباً ضارعاً ينجى أحبابه بأشواقه الروحية وعذاباته الوجدانية ، فإننا فى بعض قصائد هذا الديوان^(١) نلمس لهجة استعلائية فى مخاطبة المرأة .. يمكن أن نلمس فيها أصداء عمر بن أبى ربيعة قديماً ، ونزار قبانى حديثاً ، حيث يحلو لكل منهما أحياناً أن يصور الطرف الآخر فى موقف الخاضع المتوسل ، لاموقف المستعلى المعتر بكبرياء الجمال ، وحيث يحلو لعمر بن أبى ربيعة أحياناً أن يصور هذا النموذج بقوله :

قالت الصغرى وقد يتيمتها قد عرفناه .. وهل يخفى القمَر ؟
 وقوله :

(١) أقصد ديوانه الثانى (قطرة فى زمن العطش) .

ماوافق النفس من شيء تُسرُّ به وأعجب العين إلا فوقه عمرُ
 شيء يقترب من هذه الأصداء — إلى حد ما — يمكن أن نجد في بعض
 قصائد الديوان الثاني ، ومن ذلك قصيدة (ثوب الغرور)^(١) التي يقول فيها :
 دعى الوهم يا امرأة^(٢)
 دعى كبرياء الغرور
 فألى متى يحيا خيالكَ في القصور ؟

وهذه اللهجة الاستعلائية تتكرر مرة أخرى في قصيدة (بقايا حبيب)^(٣)
 حيث تتوسل احداها بأكية :

قالت ويخفق صوتُها
 أنسرُ البكاء
 هاغُدتُ أستجدي
 رضاك لَكُنْ أغودُ
 وطمعتُ في الغفران
 مِن بَعْدِ الجحودُ
 مسكينةٌ جاءت تُناشِدُنِي
 الرجوعُ
 لم تدرِ أن السَّوْقَ فاتُ
 لم تدرِ أن الحُبَّ ماتُ .. !

ثم يصرخ فيها الشاعر قائلا :

لمى ردائك واخرِجني
 ماعاد ينفع مابقي

وإذا كانت أحزان الغربة المرتبطة بالطبيعة والحب ، تسود كثيرا من قصائد
 الشاعر (هلال العامري) فإن جانباً لا بأس به من قصائده ، يدور حول
 قضايا المجتمع ، وقضايا العروبة والإسلام ، وهو حين يتناول هذه القضايا

(١) ص ٧ من المرحع السابق

(٢) في هذا البيت حول الشاعر همرة الوصل في كلمة « امرأة » إلى همرة قطع

(٣) المرحع نفسه ص ٢٢

لا يتناولها بأسلوب خطائي صارخ ، كما يفعل بعض الشعراء الخطائيين ، وإنما يتناولها معتمدا على مقومات فن الشعر — كما ينبغي أن يكون — إنه يقدمها لنا في قالب فني يعتمد على البناء بالصور والرمز والأسطورة والبناء الدرامي ، والإيقاع الهامس ... ، يمكن أن نجد هذه المقومات واضحة في قصيدته (لؤلؤة الغوص)^(١) فهو يلجأ فيها إلى الرمز والصورة والبناء الدرامي ، إذ يقيم لنا بناء فنيا مترابطا من الصور والرموز والأحداث التي تنمو شيئا فشيئا ، إلى أن تنتهي إلى ذروة التعقيد .. إلى ذروة المأساة ، حيث يصور لنا الشاعر مجتمعا ما .. في مكان ما .. يحيط به ظلام الليل الممتد كأمواج البحر ، والصمت الرهيب الذي يَهْدِي .. والخائفون من الناس يأوون إلى بيوتهم وقد حاصرتهم الأحزان ، وأين الليل ، وكوايس الأحلام .. !

وعند طلوع الفجر يبدو شراع في البحر ... والصمت يخيم على القبور ، وجميع الناس منتظرون على الشاطئ .. وبأيديهم قبضة عشب ، ينتظرون الأمل المرتقب القادم من أعماق البحر ... وعيونهم مشدودة إلى الشراع القادم ، وكل منهم يختلج في أعماقه الدعاء والتضرع الى الله بتحقيق الأمل على أيدي هؤلاء الغواصين القادمين من البحر ، ولكنهم في النهاية مُحَاصَرُونَ بالإحباط واليأس ... فالغواصون يموتون بقاع البحر والمنتظرون على الشاطئ ... يموتون أيضا موتاً معنوياً تحت وطأة الوهم والخُرافة .. وانتظار مالا يأتي .. !

إن القصيدة غنية بالإيحاءات .. ويمكن أن تقدم للمتذوق أكثر من رؤية ، وأكثر من تفسير ، وهذه سِمَة مِنْ سمات الشعر الرائع ، ورؤيتي أنا لهذه اللحظات النفسية الدرامية في هذه القصيدة ، أنها — في تصويري — توميء إلى قضية اجتماعية ، ويمكن أن نضع لهذه اللحظات الدرامية هذا العنوان (الشعوب ولؤلؤة الوهم) نعم .. الشعوب حين تركز إلى السلبية في فترة من فترات تاريخها ، وتعلق آمالها على وهم مجهول .. على خبطة حظ عشوائية قد تأتي ... وقد لا تأتي .. الشعوب حين تنسحب من عالم الواقع .. أو .. تهرب من مواجهته ، وتؤثر البحث عن مُدْنٍ مثالية حاملة .. (يوتويات فاضلة) وتستسلم لوهم مجهول .. وأحلام غامضة .. !

(١) ص ١٣ من ديوانه (هودج الغربة)

ويمكن أن توحى هذه القصيدة أيضا بالواقع الأليم الذى كان يعانيه الشعب العُمانيُّ قبل أن تشرق النهضة المباركة ، ورموز القصيدة تساعد كثيرا على تأييد هذا الإيحاء ، فرموزها أقرب إلى أن تكون رموزا عُمانية .. إذ تقوم على الغربة والبحر والشرع والغوص فى أعماق البحار ، بحثاً عن اللؤلؤ .. ثم ما يحيط بهذه الرموز من عوامل الإحباط والحزن والألم ، التى كان يعانيها الشعب قبل النهضة المباركة ... !

والشاعر فى هذه القصيدة حين اعتمد على البناء الدرامى ، لم يعتمد على مجموعة أحداث متتابعة ، إنما استغنى عن الأحداث بمجموعة من الصور النفسية المتتابعة ، واستغنى عن تعميق الأحداث بتعميق الحالات النفسية لأبطال قصته إلى أن وصل بهم إلى ذروة المأساة ، لكى يكشف لنا عن عالم مغمور ضائع ، يستبد به الحزن والقلق والتوتر ... وانتظار شيء ما .. !

ولنتأمل هذه القصيدة التى تقدم لنا هذه القضية الاجتماعية :

الصمتُ القاتلُ يَهْدِي
ويَدُ التاريخ تُحْط .. !
وظلام الليل
كأمواج البحر
والفرعة .. كل الفرعة تأوى
وصدى الأحزان
وصوتُ القهـر
الليل يئن بوحدته
والصبر تقطُّع
والحلم تناهى
عند طلوع الفجر .. !
وعند خيوط الشمس الأولى
بانَ شراعٌ فى اليمـ
وبانَ الصمتُ على الأجداث
وتَنَاهَى للسَّـمْعِ
هديرُ البحر

الْجَمْعُ عَلَى الشَّاطِئِ
 مَنَظَرُونَ
 وَبِأَيْدِي كُلِّ مِنْهُمْ
 قَبْضَةٌ صَبْرٌ
 قَبْضَةٌ أَمَالٍ كُبْرَى
 نَنْتَظِرُ الْقَادِمَ
 مِنْ أَعْمَاقِ الْبَحْرِ
 وَعَيُونَ الْجَمْعِ قَدْ اشْتَدَّتْ
 نَحْوَ شَرَاخٍ يَتَهَيَّأُ
 وَبِدَاخِلِ كُلِّ مِنْهُمْ
 أَلْفُ دَعَاءٍ
 آلَافُ مَلَائِينَ الرِّغْبَاتِ
 حَالٌ وَتَحْقِيقُ الْأَدْنَى مِنْهَا
 سُلْطَانُ الْفَقْرِ
 لَكِنَّ الْجَمْعَ يَمُوتُونَ
 يَغُوصُونَ بِأَعْمَاقِ الْبَحْرِ
 وَيُظِلُّ الصَّمْتُ الْقَاتِلَ
 يَهْدِي
 وَيَدُ التَّارِيخِ تُخْطِ .. ا

ويعود الشاعر مرة أخرى فيتناول هذه القضية الاجتماعية في قصيدة (قدوم المارد)^(١) معتمدا أيضا على لحظات درامية ، تقوم على مجموعة من الصور النفسية المتنامية المترابطة التي تصور برموزها وإيجازاتها ، قضية بعض الشعوب التي تنتظر وهى فى حالة من الوجد الغامض ، حلاً للقضية الاجتماعية التى صورتها القصيدة السابقة ، حين تنتظر بعض الشعوب ، وهى فى حالة من الوجد الغامض والسلبية الراكدة ، المارد المجهول الذى ينشق عنه البحر فجأة ، ليملا الأرض بالخير والرخاء :

(١) ص ٤٢ من ديوانه (قطرة فى زمس العطش) .

آلَافُ الْمَرْضَى تَنْتَظِرُ الْمَارِدَ
كَيْ يَحْضَنَ فِي عَيْنِهِ الْبَحْرَ
وَيَشْفِي الْمَرْضَى
كَيْ يَقْتُلَ هَذَا الْغُولَ
كَيْ يَهْزِمَ هَذَا الْغُولَ
الْمُتَوَحِّشَ فِي الْأَسْوَاقِ .. !

وكما اهتم الشاعر بمثل هذه القضايا الاجتماعية ، فقد اهتم أيضا بالقضايا القومية وكان لبيروت .. الجرح الدامي في قلب الأمة العربية ، أكثر من قصيدة غاضبة في شعره ، ومن هذه القصائد قصيدة (الفقيدة)^(١) التي اعتمد الشاعر فيها على تمكنه من فن الكاريكاتير ، أو فن الصورة الساخرة اللاذعة — في مجال الشعر — ولنتأمل هذه الصورة المتطرفة في سخريتها الحادة ، حيث يقول :

سَلِّبُوا عِفَافَكَ
يَا بِيْرُوتَ واحْتَفِلُوا
وَيَتَّيْنِ أَرْدَاكَ الْحَضْرَا
أَقَامُوا الرِّقْصَ وَالطَّرْبَا .. !

وتنتهى هذه الكوميديا المأساوية ، بأن أصبح حل القضية الفلسطينية يتوقف على الخطب العصماء :

وَتَرْبَعُوا عَرْشَ الْخُطَابَةِ كُلَّهُمْ
كُلُّ الْحَافِلِ صَارَتْ
تَحْفَظُ الْخُطْبَا

وتعنف صوره الساخرة من الكوميديا المأساوية .. فتقطر دما .. ودموعا .. في قصيدة (جرح الكرامة)^(٢) حين يرى أن جرح الكرامة في فلسطين اللاجئة .. لن يعالج بالكلام والخطب .. وسيظل وصمة عار حتى يعود الشعب الفلسطيني الى وطنه ، حيث يقول :

(١) ص ٥٥ من ديوانه (قطرة في رمل العطش) .
(٢) ص ٥٩ من نرجع الساق

ويضجُ في الليل الأنينُ
صوتُ البراءةِ والشقاءِ
والجرح يحفر من جديد
جرحُ تأصلٍ من سنين
جرحُ تحدرٍ بالكلام
قولاً بوغدي الواعدين
جرح الكرامة .. لم يزل
وصناً على هام الجبين .. !

وإذا كان هلال العامرى ، يبت تأملاته الفلسفية ، ورؤيته للكون والحياة في كثير من قصائده التي ترتبط بالغربة والطبيعة ، فإنه يفرد لتأملاته الفلسفية أحيانا قصائد مستقلة ، ومن هذه القصائد ذات الطابع الفلسفى قصيدة (غفوة تحت جدار الخريف)^(١) يقول فيها :

تمر الفصول ويأتى الخريف
لماذا الخريفــــــــــــــــف ؟
لأنَّ الإهانات تأتى
بشكــــــــــــــــل الخريف
لأنَّ المسافات تُنبأى
بوقــــــــــــــــت الخريف
لأنَّ النساء الجميلات تعفن
وقــــــــــــــــت الخريف
لأنَّ الحروب الطواحين
تبدأ وقت الخريف
وتنمــــــــــــــــوا السنابل
وقــــــــــــــــت الخريف
وتحمــــــــــــــــل كُـلُّ النساء
بأبطالنــــــــــــــــا فى الخريف

(١) ص ٤٩ من ديوان (قطرة فى رمل العطش) .

تَعْرِى الغصون
يَكُون الخريف
وَكَبُّو الفوارس
عَمَز الخريف
وَشَمَّ العطر
بَلِيل الخريف
وَحَتَّى الهزيمة تَأْتِي
بَثْوِب الخريف

إن الشاعر في هذه القصيدة ، يرى أن الخريف فصل الحكمة التي تمثل
أعماق الحياة بكل أبعادها المتناقضة ، وبكل أضدادها المتصارعة .. ففي
الخريف تنمو السنابل الخضر ، وفي الخريف أيضا تأتى الحروب الطاحنة ،
وتعنس النساء الجميلات ، وتحمل كل النساء بأبطالنا .. فى الخريف .. وقد
نجح الشاعر فى تصوير تناقضات الحياة وصراعاتها التى تضمن استمرارية
الحياة ، وبقاء الكون ، معتمدا على مهرجان فنى من الصور القائمة على صراع
الأضداد ، وهذا يذكرنا بمهرجان الصور المتضادة الذى كان (أبو تمام) بارعا
وراعيا فى إقامته فى كثير من قصائده ، وبخاصة فى قصيدته عن فتح
عمورية^(١) ، فى تلك اللوحات المتضادة التى رسمها للحرائق التى أشعلها الجيش
الاسلامى فى عمورية ، وفى تلك اللوحة التى رسم فيها شخصية (المعتصم)
وشخصية عدوه وعدو المسلمين (تيوفيلوس بن ميخائيل)^(٢) وبهذه اللوحات
الرائعة القائمة على صراع الأضداد ، اعتُبر أبو تمام أستاذا لهذا اللون من فن
التصوير ، لِكُلِّ من جاء بعده من الشعراء .. !

ولكن رؤية الشاعر للحياة .. على الرغم من تنوع أبعادها وزواياها ، فإنها
محاطة دائما بإطار الغربة والبين والرحيل ، والقلب الظامئ دائما إلى قطرة
حب وصفاء فى زمن محاصر بالجدب والعطش .. ! فلياليه دائما محاصرة
بالغربة والرحيل .. وأوتار الليل تردد ألحان الغربة ، والغربة تحاصر أحلام

(١) راجع القصيدة فى ديوان أبى تمام — ح ١ — ص ٤٥ (صعه بيروت)

(٢) انظر كتاب (أبو تمام وقضية التجديد فى الشعر) للدكتور عدده بدوى — ص ١٩٧ ، ص

(ب) وإذا كنا قد لاحظنا ميل موهبة الشاعر إلى استخدام الرموز والأساطير في تجسيد فكرة معينة ، كما يتضح ذلك في قصيدته : (لؤلؤة الغوص) و (قنوم المارد) وغيرهما ، فإن مما يكمل هذه الأدوات التشكيلية في شعره ، موهبته في التعبير بالصورة ، وقيام تشكيكه الفني في القصيدة على البناء بالصور ، وقد تحدثنا قبل ذلك عن نموذج من صوره التي نرى فيها التحاماً بين الإنسان والكون ، وتَمَرُّقاً في الوقت نفسه بين الغربة والوطن ، والوصل والفرق ، والأمل واليأس ، تحدثنا عن هذا النموذج من التصوير في تناولنا المفصل لقصيدته (تهاجر عينك بأخيلتي) و قصيدته (جرح الأمس) .
وهذا التوحد والالتحام بين الإنسان والكون ، أو بين الإنسان والطبيعة في صوره ، نلمحه أيضاً في تصويره لسحر العيون ، حيث نرى جمال هذه العيون ، يتوحد مع جمال الطبيعة في مثل هذه الصورة :

عيناك .. يأمْنِي
حزينة .. كحزنِي
كليل باريس في الشتاء
كالقمر الخالِم في المساء
كالطير الصاعد للسماء^(١)

وهذا الالتحام بين جمال البشر وجمال الطبيعة في تصوير سحر العيون ، في هذه الأبيات يذكرنا باللوحة الجميلة التي رسمها الشاعر العراقي بدر شاكر السياب في مطلع قصيدته (أنشودة المطر) :
عيناك .. غابَّتْنا نخيل .. ساعة السَّحَرِ
أو .. شُرفتَانِ .. راح ينأى عنهما القمرُ

ولعل أهم ما يميز الصورة الفنية في شعر (هلال العامري) أنها لا تدخل في إطار الصور الجزئية القائمة على تشبيهات سريعة ، أو استعارات لا تكاد تبدأ حتى تنتهي ، ولا يبدو فيها شيء من العمق الساحر البعيد الغور ، وإنما تمتاز الصورة في شعره بأنها تمتد امتداداً جميلاً من بداية القصيدة إلى نهايتها ، هذا ما رأيناه في قصيدته : (تهاجر عينك بأخيلتي) و (جرح الأمس) وهذا

(١) من قصيدة (لوحة بريشة الشاعر) ص ٤٤ من « قطرة في زمن العطش » .

مانراه أيضا في قصائد أخرى ، منها قصيدة (نزيه قلب)^(١) حيث نرى القصيدة كلها تقوم على صورة واحدة تبرز فيها مشاعر النفس المعذبة القلقة التي تتصارع في أعماقها ذكريات ماضي سعيد ، وعواصف حاضر تعس شقي كئيب .. تبرز فيها هذه المشاعر بالشمس الغاربة ، في « مونولوج » داخلي حزين ، يهمس فيه الشاعر لنفسه .. بما كان .. وما يكون .. يذكرنا بذلك « المونولوج » الداخلي الذي نجده في قصيدة (خليل مطران) (المساء) ولنتأمل ذلك في أبيات القصيدة :

قبل غروب الشمس
جلست أحسب
في الشفق الأحمر
وبذاكرتي أحزان الماضي
وخيل إلى يسبح
في اللاشيء
مر شريط الذكرى
يعصر ذاتي

يحرق ذاتي .. !

مال الأفق الأحمر
وتحرك موقعه الأبدى
نحو اللاشيء
حيث عانق صدر الكون
سراب الماضي

وبدا يعزف لنا
يخترق السروح
ويلهب وجداني
ويحرك في صدري

آهات الماضي .. !
وبدا قرص الشمس

(١) ص ٩ من ديوان (قطرة في زمن العطش) .

كنقطة دم
قد نرفت من قلب الماضي .. !
وبدا وهج النقطة
يعصر ذاتي
يمسح من ذاكرتي
آلام الماضي
أحزان الماضي
ويشد بداخلها
خيوطاً يربط نفسي
بشتات الماضي .. !
قبل غروب الشمس
منذ سنين
كان لقاء الماضي
حفنة آمال
زيتها لون الشفق الأحمر .. !

(ج) بقي لنا أن نشير الى ظاهرة تعبيرية لها أهميتها أيضا ، وهي ارتباط الشاعر في بعض صوره وتعبيراته بالبيئة العمانية ، ومن نماذج ذلك الارتباط : تصويره للبيئة العمانية المرتبطة بالخلجان ، حين يتخيل زورق الحب تتقاذفه أمواج الخلجان ، وذلك في قصيدته (رحيل)^(١) كما نجد في قصيدته (ليل الغربة)^(٢) صورة من صور البيئة العمانية : صورة البادية والنخيل ، حيث يقول :

ونحلم .. تشرق أيامنا
ونهى هواننا
ونرتفع في البادية
تدثرنا الباسقات
ونطعم أجسادنا

(١) ص ٣٤ من ديوانه (هودح العرة) .

(٢) ص ٣٨ من ديوانه (فطرة في رمس العطش)

ونركب أجسادها الحاوية .. !

ويرى عيني الحبيبة « قبيلة عشق » ، وذلك في قصيدته (رحلة في تاريخ
الحزن) (١) :

عيناك قبيلة عشق
تدعو التاريخ
لحفلة رقصة
حفلة آمال كبرى

وفي قصيدته (حفلة وداع) (٢) تصادفنا تلك الكلمة العمانية ، وهي كلمة
(بؤبؤ) حيث يقول :

دعى بؤبؤ عيني
يستريح قليلا
لقد أنهكه الركض
وهو يلثت خلف خصلات
شعرك التي تمتطي
عنان الرية

يضاف إلى ذلك : اتكاء معجمه الشعري على ألفاظ ترتبط بالبيئة العمانية
والإنسان العماني منذ أقدم عصور التاريخ ، ألا وهي :
— ألفاظ الغربة والبحر والأمواج والرجيل والسفر والهجرة والمهاجر —
فلا تكاد قصيدة من قصائده تخلو من هذه الكلمات ، ولنقدم لهذه
الظاهرة التعبيرية بعض الأمثلة : ففي أول قصائد ديوانه (هودج الغربة)
تلقنا قصيدة بعنوان (تهاجر عينك بأخيلتي) (٣) وفيها يقول :

يا مَن تحيا ضمني
وأعيش مسافر

(١) ص ٥٧ من المرحع السابق .

(٢) ص ٦٩ من (هودج الغربة) .

(٣) ص ٩ من الديوان السابق .

وفي بيت آخر في هذه القصيدة نفسها ، يتخيل أن عيني الحبيبة تسافران في
عينيهِ ثم يتخيل أيضا أن عينيها تهجران بأخيلته :

كيف تهاجر عيناك بأخيلتي
دون استئذان .. !

وفي القصيدة الثانية في هذا الديوان^(١)، نجد يقول في أول بيت فيها :

أسافر في ليل ضفائرها
وتسألنني من أنت ؟

وقصيدة بعنوان (الى متى ؟)^(٢) يقول :

إلى متى أتيسه في البراري
إلى متى أضيع في الصحاري

وفي قصيدة (مرأى الأمان)^(٣) يقول :

سافرنى ان شئت
في شواطئ عيني

هكذا تتكرر وتتوالى مصطلحات : السفر والهجرة والرحيل والاغتراب ،
في قصائد أخرى عديدة منها هذه القصائد في ديوانه الأول (هودج الغربة)
وهي :

(هوى أهداني) و (رحيل) و (توشيح الحجر) و (خيوط الغربة) و
(همسات عابرة) و (تجربة في الشعر) و (عنوان كتاب) و (أهواك)^(٤) .

كما تكثر هذه المصطلحات في ديوانه الثاني (قطرة في زمن العطش) ومن
أمثلة ذلك هذه القصائد :

(حبيبتي ترفض أن أودعها) و (عودة) و (حلم العناق) و (أغنية
الحب) و (عيون الأطفال)^(٥)

(١) قصيدة (حرج الأمس) .

(١) ص ١٧ من المرجع نفسه .

(٢) ص ٢٦ من (هودج الغربة) .

(٤) انظر هذه القصائد في المرجع السابق ، ص ٢٤ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ .

(٥) انظر هذه القصائد في ديوانه (قطرة في زمن العطش) ص ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٦ .

بَلْ .. إن مصطلح (الغربة) يقتزن في احدى قصائده بالرصاص والموت ،
وذلك في قصيدته (ليل الغربة)^(١)، وهكذا يستبد بمشاعره مصطلحا :
الرحيل والسفر في قصيدته (أحلى الصور)

وهذه الظاهرة اللغوية تشير إلى المضمون الفكري الذى يشغل الشاعر
والرؤية التى ينظر من خلالها الى الكون والوجود ، والحياة والمجتمع .. !

ويجدر بنا فى نهاية هذه الدراسة ، أن نشير الى بعض الأخطاء اللغوية
والعروضية ، وأعتقد أن بعضها ، وبخاصة فى مجال الأخطاء اللغوية راجع
الى أخطاء مطبعية ، ومن هذه الأخطاء : قوله فى قصيدة (إلى متى)^(٢) :

(إلى متى ياعمري تصدئ) وصواب ذلك (إلى متى ياعمري
تصدئين ؟) لأن نون الأفعال الخمسة تثبت فى حالة الرفع ، ولاتحذف إلا إذا
سبقت هذه الأفعال بناصب أو جازم ، وهذا الخطأ يتكرر مرة أخرى فى
القصيدة نفسها فى قوله :

إلى متى ستجهل وتتركى

والصواب أن يقول : « إلى متى ستجهلين وتتركين » .

ومن الأخطاء النحوية أيضا قوله (لم تدرى أن الوقت فات) والصواب
(لم تدر أن الوقت فات)^(٣) يحذف ياء المضارع المعتل الآخر ، فحذف هذا
الياء واجب هنا لأن الفعل مسبوق بأداة جزم ، وهى (لم) .

وقوله فى قصيدة (يحلم أن يعيش)^(٤) :

جاءتْ تَبْوُحُ بلوعة

والعشق يكسو وجنتاهما

فوجنتاهما — هنا — مفعول به ، والمثنى ينصب بالياء ، فكان من الصواب
أن يقول : « والعشق يكسو وجنتها » الا اذا كان الشاعر يسير على قاعدة من

(١) ص ٣٨ من المرجع السابق .

(٢) ص ١٧ من ديوان (هودج العرة) .

(٣) من قصيدة (بقايا حبيب) ص ٢٢ من (قطرة فى رمن العطش) .

(٤) ص ٥٣ من المرجع السابق .

يلزم المثنى الألف في كل أحواله على غرار ذلك الشاهد النحوى الذى يقول :
 ان أباهـ وأبـ أباهـ قد بلغـا في المجد غايتاهـا
 ومن الأخطاء التى يبلو فيها قلق عروضى : قوله في قصيدة (جرح
 الأمس) (١) :

(أسافر في ليل ضفائرها)

والقصيدة من بحر (المتدارك — فاعلن — ثمانى مرات) وقد جاء القلق بسبب
 كلمة (أسافر) وهذا القلق يبدو أيضا في قصيدة (موكب الحرمان) (٢) فهى
 من بحر المتقارب — فعولن — ثمانى مرات) وقد جاء فيها بيت لا يسير على
 ذلك الوزن ، وهو :

ترى .. ذهب الحب بلا عودة

ترجى .. ولا أمل مثمر

وقد ظهر القلق العروضى في الشطر الأول من هذا البيت .

ويلاحظ وقوع هذه الأخطاء في الديوان الأول ، بينما نلاحظ ندرتها في
 ديوانه الثانى .

ويبقى بعد ذلك : أن هذين الديوانين يقدمان لنا شاعرا عمانيا عربيا متميزاً
 بموقف خاص ورؤية متميزة للكون والوجود والحياة والمجتمع ، شاعراً مرتبطاً
 بالبحر والخلجان .. والغربة والرحيل .. وقضايا الوجود والمصير .. !

(١) ص ١١ من (هودج الغربة) .

(٢) ص ١٦ من المرجع السابق .

المبحث الرابع

تيار الغزل في شعر / سعيد الصقلاوى :

— بين التراث والمعاصرة —

يمثل الغزلُ في دراسات هذا الكتاب ، التيار السائد في أربعة مباحث من خمسة الأبحاث التي يضمها هذا الكتاب ، ولعل ذلك يعكس صورة فكرية جديدة عن الأدب العماني ، تغاير إلى حد كبير ، ما كان يتخيله النقاد العرب في الأقطار العربية الأخرى الذين لم تنح لهم ظروفهم الحياتية ، أو الثقافية ، دراسة الأدب العُماني عن كثب ، دراسة تعتمد على الاتصال المباشر بمصادر الأدب العُماني ، والاتصال المباشر أيضاً بالشعراء العمانيين المحدثين .

وقد سبق أن أشرتُ في دراسة من دراسات هذا الكتاب ، إلى الأهمية النفسية والاجتماعية والثقافية لقصيدة الغزل المعاصرة ، وذلك حين تعرضتُ بالدراسة لتيار الغزل التراثي بين الشاعر العماني (النبهاني) والشاعر المصري (البارودي)^(١) وأوضحت أن من أهم العوامل التي وجهتني لاختيار هذه الدراسة : إحساسى بحاجة مجتمعنا العربية المعاصرة ، إلى إعادة النظر من جديد في أهمية القصيدة الغزلية ، في تهذيب وجدان الفرد ، وتربية الذوق الجمالي ، والتسامي بالمشاعر والغرائز ، وبناء مجتمع قائم على الحب والصفاء ، لا على الحقد والكراهية ... !

وقد يتوهم بعض ناشئة الشعراء من الشباب ، أن التقديمية والواقعية تحتتمان على الشاعر أن ينأى بشعره عن الحب والغزل ، وأن يلتزم فقط بقضايا الكفاح السياسي والاجتماعي ، ولذلك كان بعض الشعراء ، يقدم أحياناً ما يشبه الاعتذار حين يهيمُ بإلقاء قصيدة غزلية في بعض الندوات ، والأمسيات الشعرية ، وواضح من ذلك أن هؤلاء الشعراء يجهلون القيمة الأخلاقية البناءة للقصيدة الغزلية ، ولعل الشاعر عبد الرحمن شكرى ، كان يعنى هؤلاء عندما قال :

« ولقد رأيت بعض القراء لا يفهم منزلة الغزل في الشعر ، إن مزية الغزل ، سببها أن حُبَّ الجمال حُبُّ الحياة ، وكلُّما كان نصيب المرء من حب الجمال أوفر ، كان نصيبه من حب الحياة أعظم ، وحُب الحياة والجمال من العوامل الاجتماعية القوية التي تزجى الأمم إلى التفوق والاستعلاء »^(٢) .

(١) انظر : الدراسة الأولى في هذا الكتاب : « تيار الغزل التراثي بين النبهاني والبارودي » .

(٢) مقدمة ديوان « رهر الربيع » (الجزء الرابع من ديوان عبد الرحمن شكرى) ص ٢٩٠

وقد لاحظت حين قرأت الديوان الأول للشاعر المهندس / سعيد الصقلاوي^(١)، وهو ديوان « ترنيمة الأمل^(٢) »، ثم ديوانه الثاني « أنت قدرى^(٣) » أن هناك توارين يشغلان اهتمام الشاعر فيهما، أما التيار الأول فهو تيار الغزل، وأما التيار الآخر فهو التيار الوطني، فالحُبُّ والوطن هما الشاغل الأكبر لذلك الشاعر، ولأعتقد أن هناك انفصلاً، أو تناقضاً بينهما، فغالية العشاق العذريين في الجاهلية والإسلام، قد اقترنت في حياتهم وشعرهم لوعة الحب النبيل بشجاعة السيوف المقاتلة، والمثال أمامنا — في الجاهلية — واضح في (عنترة)^(٤)، والمرقشيين: الأكبر^(٥) والأصغر^(٦)، ففي حياة هؤلاء الشعراء، وأشعارهم، تمتزج تجربة الحب المعذب الحزين، بروح الفروسية المقاتلة الشجاعة، وفي ذلك يقول الدكتور محمد غنيمي هلال:

« وفي أدب الفروسية هذا نجد البأس والجلد والمثابرة والحمية، متجاوزة مع الدمثة والرقّة والخضوع، والدّلّة لسلطان العاطفة، والجانبان لا يتناقضان في نفس الفارس، ولكن يتكاملان، وهذا هو الأعمُّ الأغلب في روح الفروسية في الآداب العالمية^(٧) » .. !

وفي هذا المبحث من مباحث الكتاب، سأقصر دراستي على تيار الغزل في شعر الشاعر سعيد الصقلاوي، راجياً أن أتناول في وقت لاحق التيار الثاني السائد في شعره، وهو التيار الوطني:

(١) شاعر عماني معاصر، تخرج في كلية الهندسة بجامعة الأزهر، له دوره البار في حركة تطور الشعر العماني المعاصر، وله دور ملحوظ أيضاً في دراسة أعلام الشعر العماني — وبخاصة ما يرتبط بشعراء التراث العماني — وستصدر قريباً له دراسة عن الشعر العماني، كما صدر له ديوانان هما موضوع الدراسة التي أقدمها في هذا المبحث.

(٢) صدر عام ١٩٧٥ م — منشورات وزارة الإعلام والثقافة — مسقط — سلطنة عمان.

(٣) صدر عام ١٩٨٥ م بمسقط.

(٤) انظر: ديوان عنترة (طبعة صادر بيروت ١٩٦٦) ص ٧٤، ٨٩، ٩٦، ١٠١ والغزل في العصر الجاهلي — للدكتور أحمد الخولي — ص ١٩٩، ص ٢٠٠ (الطبعة الثانية).

(٥) انظر مأساة حبه مع صاحبتة أسماء بنت عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس، بن ثعلبة — في « الشعر والشعراء » — لاس قتيبة — ج ٢ — ص ٢٣٢.

(٦) انظر: المرجع السابق ج ١ ص ٢١٤.

(٧) المدخل إلى النقد الأدبي الحديث ص ٢١٥.

إن المتأمل لقصائد الغزل في ديواني ذلك الشاعر ، يجد أن مصادر شعره
الغزلي ، ترجع إلى مصدرين أساسيين :

أ — أمّا المصدر الأول فهو التراث ، وللتراث العربي تأثيره الواضح في
مفهوم الحب عنده في بعض قصائده ، وتأثيره أيضاً في معجمه الغزلي وصوره
وموسيقاه ، وقد قدّم لنا بنفسه في بعض قصائده ، بعض الإشارات الدالة على
تأثره في مفهوم الحب بالتراث العربي ، إذ يقول في إحدى قصائده ، مصوراً
حزنه وتحسره على ضياع أحلام حبه العذري^(١) :

لما رأيتُ الحزنَ في عينيكِ ملتهباً .. !
ورأيتُ زهر الحسن في خديكِ مقتصباً
ورأيتُ أحلامَ الهوى العذري غدتُ نهباً
نَزَّ الفؤادُ أسَى جرى في الدَّمِّ واصطخباً .. !

ويمكن أن نقول : إن تجربة الحب في تيار الغزل العذري — كما يصورها
ذلك الشاعر — تقترب في كثير من خصائصها الفكرية والفنية ، من خصائص
تجربة الحب في التيار الرومانتيكي ، حيث نجد الحب المرتبط بالعذاب والألم ،
والدموع والبكاء ، واليأس والموت ، والتسامي بالعاطفة وإعلاءها ، والنظرة
الروحانية للمرأة ، والصبر والكتمان ، والتضحية^(٢) ، ولعل هذه الملامح العذرية
الرومانسية تتضح حين نرى الشاعر في بواكير شعره الأولى في ديوانه الأول
(ترنيمة الأمل) يقدم لنا مفهوم الحب عنده ، فيقول^(٣) :

أهواؤه .. رغم الهجر أهواه بين الحشا في القلب سكناه
الحب نَهْرٌ في دمي دَفَقَ فهو الذي في القلب أجراه .. !
يا لائسي في حبه عبثاً أَتَلَوُ مِنْ بِالْحُبِّ مَحْيَاهُ .. !!

(١) ديوان « أنت لي قدر » من قصيدة بعنوان « لا تخزي » ص ٧٣ .

(٢) انظر في خصائص الغزل العذري : « الغزل في العصر الجاهلي » — ص ١٥٣ — ص ١٥٩ ،
و « في الحب والحب العذري » للدكتور صادق جلال العظم — ص ١٠٤ وما بعدها ، و
« حديث الأربعة » ج ١ ص ١٨٧ وما بعدها — للدكتور طه حسين — ، و « تيارات معاصرة
في الشعر الجاهلي » من ص ٧٠ — إلى ص ١١٥ — دكتور سعد دعبس .

(٣) ديوان « ترنيمة الأمل » ص ٧١ من قصيدة « صدى الذكريات » .

والحب في نظره هو سر الحياة وجوهرها ، وبدونه تصبح الحياة مقبرة كئيبة شوهاء :

إذا المرء لم يُسَقِّ كأسَ الهوى فأولَى له أن يوارى التراب .. !
وأولَى له أن يعيش كئيماً كسير الفؤاد ، طريح الجناح^(١) .. !

ويقدم لنا هذه الفكرة مرة أخرى في ديوانه الثاني ، حيث يرى أن الحب ظاهرة من ظواهر الطبيعة حولنا ، وهل يستطيع الإنسان أن يهرب من الظواهر الكونية ، أو يرفضها .. إن الحب هو الهواء وهو النور ، وهل يستطيع إنسان أن يعيش بدونهما ؟ وفي ذلك يقول^(٢) :

ثُمَّ قالوا : أكذا مفتونٌ فيها^(٣)
قلتُ : من غير هواءٍ كيف أحيى ؟
إن من لا يعرف الحبَّ فُدَّتْ رِجَاهُ
ظلامٌ .. وهو فيها ليس شيئاً .. !

الدعائم الفكرية والفنية التي يقوم عليها غزله : —

وآن لنا أن نحاول تبين معالم التجربة الغزلية عند ذلك الشاعر ، موضحين الدعائم الفكرية والفنية التي تقوم عليها هذه التجربة — كما يعكسها شعره في هذين الديوانين :

(أ) التدفق العاطفي :

يمثل التدفق العاطفي في التجربة الغزلية ، والتجربة الرومانسية ، معلماً بارزاً من معالم هاتين التجربتين ، فالوجد والعذاب ، والحزن والبكاء ، والألم والمعاناة ، سمات العشق النبيل في هاتين التجربتين .. ! إن دموع الشاعر العذري ، تصبح بمثابة أصدقائه الوحيدين في هذه الرحلة الرهيبة ، رحلة الحب

(١) المرجع السابق ص ٢٩ من قصيدة « ظلال » .

(٢) ديوان « أنت لي قدر » من قصيدة « حبيتي » ص ٥٧ .

(٣) يلاحظ أن الشاعر أتى بكلمة (مفتون) بدون تنوين — وكان من حقها أن تنون — ويدخل هذا في باب (الضائر الشعرية) .

اليأس ، والعزلة الكيفية ، وهذا الملمح العذرى ، يعتبر أيضاً من الملامح المميزة لتجربة الحب في الأدب الرومانتيكى ، وقد عُرفَ هذا الملمح في ذلك الأدب بما يسمّى (مرض العصر) ويعنون به : تلك الحالة النفسية التى تتولّد من عجز الفرد عن التوفيق بين القدرة والأمل اللذين يتعارضان ، فيشقى الفرد بهذا التعارض ، وإنّه وإن يكن هذا التعارض حقيقة إنسانية عامّة تصدق في كافّة العصور ، إلّا أنه مما لا شك فيه ، أنه قد كان أشدّ حدة ، وكانت النفوس أعمق إحساساً به في أعقاب الثورة الفرنسية ، وما تلاها من أحداث ، عنها في أى عصر آخر ، حتى لنرى الرومانسيين أنفسهم يحشّون بأنه قد أصبح مرضاً لعصرهم ، استعذبتهم نفوسهم التى كانت ترى أن أجهل الأغاني ، ما كان أعمقها يأساً ، وأشدّها بكاءً وحزناً(١) ...!

وتمتاز الشخصية الرومانسية بالحزن الغالب على النفس في كل حال ، دون وجود سبب ظاهر لهذا الحزن ، ولهذا يعتصم الرومانسيون من الواقع بالانطواء على نفوسهم ، ونشدان مثل أعلى لهم هو : الجمال ، والرومانتيكى غريب في عصره بشعوره وإحساسه ، لأنه يحسّ بالتفرد والعبقرية ، ولذا فالألم والدموع علاجٌ لنفوسهم المرهفة المتفردة ، إنهم يحبون الحياة الغامضة ، ويضيقون ذرعاً بالأشياء الثابتة المستقرة ، ومن هنا فهُم مغتربون زمانياً ومكانياً(٢) .. !

ويبدو أن تجارب الحب التى تركت بصماتها الواضحة في تاريخ الأدب ، كانت تُسَمّ بالشقاء والتعاسة والبؤس ، إنها تلك التجارب التى لا تعرف النهايات السعيدة ، بل تحالف المأسى وتقترن بالموت والدمار والخراب « أمّا الحب المتوج بالسعادة المستمرة ، والاكتفاء الدائم — إن كان له ثمة وجود على الإطلاق — فإنه لم يُلهم ، إلّا فيما ندر ، أحداً من كبار الكتّاب ، أو عباقرة الشعراء والأدباء(٣) » .

(١) انظر : محاضرات في الأدب ومذاهبه — دكتور محمد منلور ص ٤٥ .

(٢) انظر : الرومانتيكية — دكتور محمد عيسى هلال — ص ٣٦ — ص ٤٨ .

(٣) في الحب والحب العذرى — د . صادق جلال العظم ص ٢٠ .

« وابن حزم » يعبر عن هذه الظاهرة خير تعبير ، فيقول : « والحبُّ أعزُّك الله .. داء عياء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقام مُستلذ ، وعلة مُشتهة ، لا يؤدّ سليمها البرء ، ولا يتمي عليها الإفاقة ، يزين للمرء ما كان يأنف منه ويسهل عليه ما كان يصعب عنده (١) .. !

وهذه الملاحم النفسية والوجدانية ، ماثلة بوضوح في كثير من القصائد الغزلية للشاعر سعيد الصقلاوى ونراها في ديوانه الأول (ترنيمة الأمل) أشد عتفاً منها في ديوانه الثاني (أنت قدرى) وربما كان ذلك راجعاً إلى أن الديوان الأول يمثّل في حياة الشاعر ، مرحلة الشباب المبكر ، بما يقترن بها من ثورة عاطفية مشبوبة ، ومن ثمّ نجد في ذلك الديوان مجالاً لكثير من الصور الحزينة الباكية ، التي تسودها أحياناً قليلة بعض المبالغات العاطفية ، ومن ذلك قوله (٢) :

لا تلمنى .. يا صديقى .. خلّ لومى والعتاب
كل شيء راح .. لم يبق سوى جرح العذاب .. !
الهوى راح وولّى .. واختفى خلف حجاب
وشموسى فى غروب .. وأتى بعد السحاب
* * *

وإذا الليل عجاج .. وإذا الصبح ضباب
وإذا الحب ظلام .. كل من فيه مصاب .. !
لا تلمنى فى بكائى يا صديقى .. لا تلمنى

ونلاحظ أن الشاعر فى ديوانه الثاني « أنت قدرى » يقلّل إلى حدّ ما — من هذه البكائيات الصارخة ، ويعتمد — مع تطوره الفنى والفكرى — إلى شيء من الإتزان العاطفى ، فيميل إلى تصوير عاطفته عن طريق وسائل متطورة ، كالتعبير بالصور ، والمونولوج الداخلى ، والحوار ، والأحداث ، والغوص فى أعماق شخصياته ، سواء كان سعيداً معها ، أم شقيّاً ، ها هوذا يصور لنا صورة أقرب إلى العمق لشخصية امرأة تافهة ، تُخدع فيها فترة ، ثمّ كانت ثورته عليها ، حين تكشف زيفها (٣) :

(١) طوق الحمامة فى الألفه . الآلاف — ١٧ .
(٢) ديوان « ترنيمة الأمل » من قصيدة « لا تلمنى » ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٣) ديوان « أنت قدرى » قصيدة بعنوان « خديجيا واعبرى عى » ص ٣٧ — ص ٣٩

خذيها .. واغري عني .. !
رسائلك التي ما عدت أذكرها
وأفتحها
وأحفظ كل ما فيها
خذيها واغري عني .. !
* * *

أيا وترأ .. بلا لحن
ويا شيئاً .. بلا معنى
ويا سُحْباً .. بلا مطر
ويا روضاً .. بلا زهر
ويا أفقاً .. بلا قمر
يزغرد في عيون الليل ، يا وهنا
خذيها .. واغري عني
* * *

أنا ماعدت ذاك الطفل .. أغرق في ابتساماتك
وتسحرنى .. وتسبيني ظلال الوهم
في شتى رواياتك
أنا ما عدت ذاك الأبله المخبول
أنخضع تحت رواياتك
وأقرأ فيك أيامي الجميلات
وأحلامي البسيمات
فأستأف المني بدعاً
وأنت البدع في ذاتك
خذيها .. واغري عني
* * *

هَوَانَا .. لم يُعَد طفلاً
وسهراً دافقاً طهراً
ونوراً يحمل البشرى

ربيعاً كان مخضلاً
عاضني .. آو ما أضحي
صعاري .. دوغما زرع
بها الأينم واقفة كتمثال من الجزع
دقائقها .. ثوانها .. قد انتحرت
وكم فيها الهوى نُجرا .. !
* * *

خذيها .. واغري عني
رسائلك التي كانت لروحي الخمر والسلوى
غدث جمرأ بها تكوي .. !
فبئس الخمر والسلوى .. !
خذيها .. واغري عني .. !

هذا المزيج من التطور الفني القائم على التعبير بالصور ، ورسم
الشخصيات ، مع شيء من التدفق العاطفي والعذرية ، نجده مرة أخرى ، في
هذه المناجاة المتفائلة الباسمة (١) :

يا أجمل ما في الكـون لـدى .. !
يا أحلى بـسمة حب في شفـثـى
يا شمس العمر .. ويا الحنى الأبدى
يا فرحة عيد .. تهلل في عيني .. !
يا لؤلؤة القلب العاشق يا كنزى الذهبى
يا همس الحب .. ويا نور الأمل الفضى
يا روح الروح .. ويا حلمى الوردى .. !

وهذه النبرة التفاؤلية المشرقة في تصوير تجربة الحب ، تطل علينا أيضا مرة
أخرى ، حين يعود إلى مناجاة الحبيبة ، في قصيدة أخرى (٢) :

(١) ديوان « أنت قدرى » من قصيدة (أنت) ص ٨٥ .
(٢) المرحع السابق — من قصيدة « توقيع باللون الأحمر » ص ٢٠ .

ميناء فؤادى أنت وأحلامى
ومنى الروح الهيمى فى أفق الأيام .. !
فى عينك الملح أشعة الأيام تعنى جَذَلِي
وعلى لبّاتك يسجد نور حسر وينثر فلا
وأحس بصوتك همس النحل الدافق بالحب
يفشى بالبهجة عينى
يسبى بالفرحة قلبى
يا أحلى ما فى الدنيا .. !

إنه فى هذه القصيدة يصور لنا إيمانه بأن الحب هو سر الحياة ، وأن كل
الكوارث الطبيعية ، والمآسى الكونية ، من فيضانات وزلازل وبراكين ، يمكن
أن يكون علاجها الحب :

كونى حجراً صلباً
كونى لهباً .. كوني وقدأ
كونى شيئاً ذرياً يطحن أحشائى .. !
ويقد فؤادى من لهف قدأ
كونى طوفاناً .. عاصفة .. حُبلى بالأمطار
إعصاراً ، زلزالاً ، لا يُبقى فى رحم الدنيا من آثار
كونى ليلاً .. كوني قمراً
كونى شوكة .. كوني زهراً
كونى ما شئت بهذا الكون الرحب الطامى
إلى أنا أهواك .. !
أنا أهواك (١) .. !

ولكنّ التدفق العاطفى العنيف .. بأحزانه وآلامه ، ودموعه وبكائه ،
وعذابه وضياعه ، يتفجر هادراً صارخاً فى جانب آخر من قصائده ، وبخاصة
فى ديوانه الأول (ترنيمة الأمل) حيث نجد هذه الصور الحزينة الباكية :

(١) المرحع السابق — القصيدة نفسها — ص ١٩ .

إنّ دمعى من عيونى .. فى انحدار كالمياه
لا تلمنى فى بكائى .. فأنا أبكى هواة^(١)

أفلت عنى نجومى والليالى الباسمات
فلترى سحر وجودى والطيف الراقصات
وعلى موج بحار فى المياه الهائجيات
لَمْ أَجِدْ زروق حبى .. والليالى داجيات
فامتلاً القلبُ جراحاً مشخبات داميات
والمآقى ذارفات .. ودموعى شاكيات^(٢) .. !

جفت الأدمع من تلك العيون الدامعات
لاتلمنى فى نحيبى .. ليس ما يمضى بآث^(٣)

صليبنى.. صليبنى.. سنائى وعينسى صليبنى ورقى لقلبى الحزين
كفاك عقوقاً .. كفانى بكاءً فرفقاً حياتى بدمعى السخين
كرهت وجودى .. كرهت أناسى أنا من جفاك لحيى طعين
حياتى جحيماً .. وصبحى ظلامً وليل طويل .. وكلى أنين^(٤) !

بينما يقل ذلك الطابع المأساوى الصارخ — كما أوضحنا سابقاً — فى ديوانه
الثانى (أنت قدرى) ويحل محله تدريجياً ، تطور فنى ، أقرب إلى التفاضلية
المشرقة ، تطور يعتمد على عمق تصوير الشخصيات ، والبناء التعبيرى
بالصورة والحوار والحدث ، ولكننا لا نعدم هذا الطابع المأساوى فى بعض
قصائد الديوان الثانى حيث نجد — أحياناً — هذه الصورة :

يا قدرى وحياتى

(١) ديوان ترنيمه الأمل — من قصيدة « لا تلمنى » ص ٤٠ .

(٢) القصيدة نفسها — ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) المرجع السابق — القصيدة نفسها — ص ٤٧ .

(٤) المرجع نفسه — من قصيدة « بقايا » ص ٥١ .

إني من غيرك مفقود الذات
كالثائه مثللول التفكير ومهزوم الوجدان
ومذبوح الإحساسات
أتقيأ أحزاني .. أتجرع من كأس الحسرات
لا أدري .. ما معنى الأشياء ولا معنى الأسماء
ولا كُنه اللحظات
موجوع القلب ومكسور الرايات
مفجوع النفس ومسلوب القدرات
تتقاذف أشرعتي أمواج عذاباتي (١) .. ؟

وقد نراه أحياناً يتلذذ — كالعذرين والرومانسين — بالعذاب والألم :
لَمَّا رَأَيْتُ الحزنَ في عينيك ملتهباً (٢)
ورأيتُ زهر الحسن في خديك مغتصباً
ورأيتُ أحلام الهوى العذري غدتُ نهباً
نَزَّ الفؤادُ أَسَى جَرَى في الدم واصطخباً
فوددتُ لو كنتُ الذي لِلنَّارِ منجذباً .. !
إنَّ المدلَّةَ في الهوى يستعذبُ التعبا .. ؟

ولعله في البيتين الأخيرين ، متأثر ببيتى (ابن حزم) اللذين أنشدتهما في
حالة فتي من معارفه ، وَحَلَّ في الحب ، وتورط في حبائله :
وَأُسْتَلِّدُ بِلَاقِ فَيْكِ يَا أُمْلِي وَلَسْتُ عَنْكَ مَدَى الْأَيَّامِ أَنْصَرِفُ (٣)
إِنْ قَبِلَ لِي تَسْلَى عَنْ مَوَدَّتِهِ فَمَا جَوَانِي إِلَّا اللَّامُ وَالْأَلْفُ .. !

(ب) التوحد مع الطبيعة :

وهكذا نجد هيام العذرين بالبكاء والحزن ، واضحاً ، في أشعارهم — قديماً
وحديثاً — وهذا الهيام بالبكاء والحزن يجعلهم يأنسون إلى مظاهر الطبيعة

(١) ديوان « أنت قدرى » من قصيدة « أنت » ص ٨٧

(٢) المرجع السابق — من قصيدة « لا تحرقى » ص ٧٣

(٣) طوق الحمامة في الألفة والآلاف — لابن حزم الأندلسي — تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي —

الحزينة الشاحبة ، ولذلك نجد أن صورة الحمامة الباكية من الصور المميزة للغزل العذرى في الشعر العربي ، في كل عصوره ، يقول عنترة^(١) : —

وقد غَنَى على الأغصان طيرٌ بصَوْبٍ حنينه يشفى الغليلاً
بكى فأعْرَتْهُ أجفانٌ عيني وناح فزاد إعوالي عويلاً ..
فقلتُ له جرحَتْ صميمَ قلبي وأبْدَى نوحَكَ الداء الدخيلاً
وما أبْقَيْتُ في جفني دموعاً ولا جسماً أعيش به نحيلاً
ولا أبْقَى لي الهجران صبراً لكني ألقى المنازل والطلولاً

ويقول أيضاً^(٢) : —

وما شاق قلبي في الدجى غير طائسٍ ينوح على غصن رطيب من الرُئسِ
به مثل ما بي فهو يخفى من الجوى كمثل الذي أخفى ويئدى الذي أبْدَى !

ويقول (يزيد بن الطثيرة)^(٣) :

وأسلمني الباكون إلا حمامة مطوقة قد صانعت ما أصانعت
إذا نحن أنفدنا الدموعَ عشية فموعدنا قرن من الشمس طالع .. !

و (عروة بن حزام) حين يصور لنا خفقان قلبه العاشق ، واضطراب حالته النفسية ، يستعير طائراً وديعاً من عالم الطبيعة ، ويعلقه على كبده ، ليجسم لنا في صورة فنية ، مأساة ذهوله اضطرابه^(٤) :

وعينان ما أوقيتُ نشرأ فتَنْظُرَا بمأقيهما إلا هُمَا تَكْفَانِ .. !
كَأَنَّ قِطَاةً عُلِقَتْ بِجَنَاحِهَا عَلَى كَبْدِي .. مِنْ شِدَّةِ الْخَفْقَانِ .. !

ويلتقى في هذه الظاهرة الفنية أيضاً ، الرومانسيون في تصويرهم لتجربة الحب في أشعارهم ، فالشاعر الرومانسي ، يمزج عشقه للطبيعة ، بعشقه

(١) ديوان عنترة — ص ١٨٥ وما بعدها (طبعة دار صادر — بيروت ١٩٥٦) .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٣ .

(٣) كتاب « الزهرة » ، لأبي بكر محمد بن سليمان الأصفهاني — تحقيق الدكتور لويس نيكول البوهيمي — نشر المعهد الشرق بجامعة شيكاغو ١٩٣٢ م — ص ٢٤٣ .

(٤) الشعر والشعراء — لابن قتيبة — ج ٢ ص ٦٢٦ — تحقيق وشرح أحمد شاکر — دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٦ م . .

للموت والغربة والحبيبة ، ولا يمكن فصل هذه الموضوعات بعضها عن بعض في الشعر الرومانسي ، ذلك لأن الرومانتيكيين حين يتحدثون عن حُبهم يمتزجون بالطبيعة ، ويتمنون الموت ، ويلوذون بالعزلة والغربة ، وحين نقرأ قصيدة (البحيرة) للامارتين — نجد شاعراً عاشقاً ، متوحّداً مع الطبيعة ، متعشّقاً للفناء والأبدية ، مغترباً في زمانه ومكانه (١) .. !

وتبدو هذه الظاهرة الفنية (ظاهرة التوحد مع الطبيعة) في شعر (الصقلاري) الغزلي دعامة من الدعائم الأساسية التي يقوم عليها بناؤه التشكيلي ، ومفهومه للحب أيضاً ، ونستطيع أن نتبين ذلك في كثير من قصائده الغزلية ، ومن ذلك قوله في إحدى قصائده ديوانه الأول (٢) :

كَمْ على تَبْرِ رمالٍ .. كان يسقيني هواه
وعلى عزف نسيمٍ .. وترانيم المياه
كَمْ رقصنا نحن والحب وأطياف الحياه
وقطفنا من زهور الخلد ما فاح شذاه
وأصَحُّنا لغناء الطير في عذب غِنَاه

وقوله في مناجاة البحر ، وذكريات الماضي (٣) :

يا بحر كَمْ في رملك الفضى لوحات حُب قد رسمناه
كَمْ كنت للعشاق أغنية في الحب أحلى ما سمعناه
ورويت لي أخبارهم نغما ذابت بصفو جماله الآه
خطواته في الرمل جاثمة تبكي وصلاً قد هجرناه .. !
هل عاد يُزجى الهمس في نغم يا بحر .. أو ماتت حكاياه ؟
أو لم تُعد ذكراه راقصة في الشمس أو في النجم ذكراه ؟

ومناجاة البحر — في القصائد الغزلية — صورة من الصور التي نجدها كثيراً لدى شعراء مدرسة (أبولو) وعلى رأسهم الدكتور إبراهيم ناجي ، وهُم

(١) انظر : المدخل إلى القد الأدبي الحديث ص ٤٧٩ — دكتور محمد عيسى هلال .

(٢) ديوان تربية الأمل — من قصيدة « لائلني » ص ٣٩

(٣) المرجع السابق — من قصيدة « صدى الذكريات » ص ٧٢ ، ٧٣

يتخذون من البحر وطناً هُروبياً ، يلوذون به — أحياناً — من فساد المجتمع ، وهؤلاء الشعراء يلوذون بكل الرموز والصور التي تبعدهم عن الانتماء للواقع ، بكل ما يساعدهم على الهروب من الانتماء للأرض والمجتمع ، ولذلك فهُم يرون — مثلاً — في البحر القلقِ الثائر ، واغترابهم فيه ، وتشردهم الدائم بين أمواجه ، مَهْرَباً ووطناً آخر ينجيهم من المنفى الرهيب الذى يعانونه في وطنهم المادى^(١) .. !

وهكذا يصبح البحر وطنهم الحبيب ، وملاذهم ، ومهربهم من ظلم الناس ، وغدرهم ، على الرغم من عواصفه وأنوائه ، وأمواجه وأهواله ، ولذلك نجدهم يكتفون في اغترابهم الهارب إلى عوالم الطبيعة والحب والموت ، من صُور البحر الهائج ، والزورق الحائر ، والملاح الشارد ، والمساء الحالم الحزين ، وذلك لأن هذه الصور الحزينة الشاحبة ، تنسجم مع نفسيتهم الحزينة الهاربة من عقم المجتمع وفساده ، ولعل رمز « البحر » في شعر الدكتور إبراهيم ناجى ، أوضح مثال لاتخاذ البحر وطناً ومهرباً ، وذلك راجع لإحساسه الكثيف بضياعه في المجتمع ، وضياعه أيضاً في عالم الحب^(٢) .. ! ومن هنا يكثر في شعره تلك الرموز : الزورق الغريق — الأمواج الثائرة — العواصف .

إن البحر في شعر ناجى — في كثير من الأحيان — هو وطنه الذى ينسيه غربته في دنيا البشر :

يا نسيم البحر رِيَّان بطيب ما الذى تخيلُ من عطرِ الحبيب
صافحتني من نواحيك يدُ تمسح الدمعة من جفن الغريب .. !
وتلقاني رشاش كالْبُكا وهديرٌ مثل موصول النحيب^(٣) .. !

والبحر يرُدُّ له إنسانيته المحطمة في عالم الناس ، وحين يندمج في أمواجه ، يحسُّ أنه في حضن أمه الطبيعة ، فلا يرى في الموت نهاية ، بل اندماجاً في

(١) انظر : حوار مع قضايا الشعر المعاصر — ص ٨٠ — دكتور سعد دعبس .

(٢) انظر : مقدمة الدكتور أحمد هيكال لديوان ناجى ص ٣١ ، وانظر : الغزل في الشعر العربى الحديث ص ٥١٣ وما بعدها — دكتور سعد دعبس ، وانظر : شعراء مجدود — ص ٩ ، ١٠ — مصطفى السحرق .

(٣) ديوان ناجى ص ٨٠ — مقطوعة بعنوان « يا نسيم البحر » .

الكون الرحيب ، فيهتف :

صَدْرِي وَسَادَ زَاخِرٌ بِالْحَنَانِ تَصَوَّرِي أَعْجَبَ مَا فِي الزَّمَانِ
مَوْجٌ عَلَى الْجَنَّةِ خَافِقَانِ فَرَا عَلَى أَرْجُوحةٍ مِنْ أَمَانِ
كَمَرَكِبٍ فِي الْبَحْرِ يَوْمَ اغْتِرَابِ مَا أَبْعَدَ الْخَنَةَ بَعْدَ اقْتِرَابِ
هِيَهَاتَ يُنْجِي مِنْ شَطُوطِ الْعَذَابِ إِلَّا عُبابٌ دَافِقٌ فِي عِبَابِ^(١) .. !

وهو يهيب بجيسته ، أن تدرك زورقه الجريح الذي عصفت به الأنواء
والأمواج :

أَذْرِكِي زورقي فقد عبث اليُم (م) به والعواصف الهوجاءُ
والعبابُ العريض والأفق الموحش (م) واللاهيايئةُ الخرساءُ^(٢) .. !

وحين نتأمل موقف الشاعر (سعيد الصقلاوي) من الطبيعة ، نراه يطور
في ديوانه الثاني (أنت قدرى) موقفه من الطبيعة ، فنراه يمزج في بعض
قصائده ، تجربة الحب بموقف شمولي من الكون والطبيعة وهو موقف يندمج فيه
الشاعر مع الطبيعة اندماج الجزء بالكل ، وتصبح الطبيعة عالماً النفسى
والتصويرى ، ومن ثمَّ تصبح مظاهرها صوراً ورموزاً ومعجماً نابضاً بالحياة
لقصائده الغزلية ، ومن شعره الذى يمثل ذلك التطور في ديوانه الثانى : قصيدة
بعنوان « توقيع باللون الأحمر » ، يقول فيها^(٣) :

أَعْلَنْتُ هَوَاكِ عَلَى الْأَطْيَارِ ... عَلَى النِّسَمَاتِ
عَلَى النِّغْمَاتِ .. عَلَى الْوَتْرِ
وَرَسْمَتِكَ فَوْقَ جَنَاحِ الرِّيحِ .. عَلَى عَبْقِ الرِّيحَانِ
عَلَى وَرَقِ الشَّجَرِ

وهذا الموقف الشمولى من الطبيعة والكون ، والأقرب إلى التوهم الصوفى ،

(١) ديوان « الطائر الجريح » لناجى - ص ١٦٠ - من قصيدة بعنوان « رباعيات » .

(٢) ديوان ناجى - ص ٥٦ - من ملحمة (السراب^(١)) - السراب فى الصحراء (وانظر : دراسة
بعنوان « البحر فى شعر إبراهيم ناجى - بقلم بصرى عطا الله - مجلة الهلال - عدد خاص عن
أدب البحر - أغسطس ١٩٧٢ - وانظر فى صور البحر ومناحاته فى شعر مدرسة أبولو : حوار
مع قضايا الشعر المعاصر - ص ٨٠ - إلى ص ٨٥ .

(٣) ديوان أنت قدرى - ص ٢٠

قد يتخذ في بعض قصائده شكل تساؤلات فلسفية ، على النحو الذي يلقانا في قصيدته (لماذا نحب) حيث يقول (١) .

لماذا نفستش بين
الخمائل تحت الشجر
نخلق فوق النجوم
ونسبر ضوء القمر
ونسأل همس النسيم
ونسأل عطر الزهر
ونبحث في نغمات
الطيور ولحن الوتر
وفي كل ركن من الغاب
في السهل .. في المنحدر

عن امرأة قد عشقنا
الوصول إليها كثيراً
وددنا لو أننا غشينها
هواها . وبث العبير
وظفنا عوالم حب
بها الطهر ينثر نوراً
بها الودّ خمر تساقاه
روح الوجود حبوراً
بها النور والظلّ والفن
يرسم حباً كبيراً .. !

(١) المرجع السابق — ص ٢٦ ، ٢٧ .

ونمضي نفكر فيها
 كثيرا بعمق وصدق
 يشردنا الوهم تيهها
 لأرحب أرحب أفتي
 ونحلم أننا ملكنها
 هواها بدين وحق
 فتصرخ كل الجوارح
 فينا بمليون عشق
 تفيض به الروح كالنهر
 يدفع في كل عرق
 وتحملنا لطفه الشوق
 والأمنيات إليها
 على مركب الحلم والوهم
 يُرخصى الشارع عليها
 * * *

ثم .. ماذا بعد رحلة البحث المعذب .. عن هذا الحب الكبير .. أو
 (اليوتويا) المثالية ، في متاهات الكون .. ماذا بعد رحلة البحث المعذب عن
 هذا الفردوس المفقود .. هذا هو المصير :

فتتفر دون اكتراث^(١)
 وتختال كبراً وتيهها
 وتركنا نهباً السُّهْدِ
 والموجعات الطسوال
 يمزقنا الشك .. تسحقنا
 سافيات الليالى .. !
 فلا هي تشعر فينا

(١) القصيدة نفسها - ص ٢٩ - والضمير في قوله « فتتفر » عائد على كلمة « امرأة » في قوله « عن امرأة قد عشقنا الوصول إليها » .

ولا هي فينا تبالي .. !
لماذا نحبُّ إذن
كيف نلمس نصل الصقال
وندخل حرباً ضحايا
رحاها القلوبُ الغوالي
لماذا .. لماذا نحبُّ .. !

★ ★ ★

(جـ) . امتزاج تجربة الحب بتجربة الغربة : —

في حديثي عن الغربة في شعر (هلال العامري) تناولت مصادر الغربة التي قد يكون لها تأثيرها في شعره ، ومن هذه المصادر — كما أوضحت — مصادر تراثية تبدو في اغتراب العذرين — مثلاً في شعر مجنون أبي عامر — ومصادر أوربية — كالغربة في التيار الرومانتيكي ، والغربة في المسرح المعاصر — وأوضحت في هذا المجال أن أهم مشكلة يتناولها كتاب المسرح المعاصر مشكلة العالم المحاصر بالموت والغربة ، فهم يرون أنهم يعيشون في جزر مُحاطة بالموت والعزلة ، وكلُّ الجُسُور التي تُصلِّهم بالناس قد فُجِّرَتْ ، ومن ثمَّ فهم يعيشون معزولين عن الناس في عالم جحيمي ، يعانون من الوحدة والألم والسأم^(١) .. !

يضاف إلى هذه المصادر ، مصدر آخر ، ربما كان أهمَّ هذه المصادر ، ألا وهو : حياة المجتمع العُماني المرتبطة دائماً بالبحر ، فللبحر والموج والشرع والرحيل والغربة ، تأثير كبير في ماضي الشخصية العمانية وحاضرها ، ولعل هذا المصدر الأخير هو أهم هذه المصادر المؤثرة في ارتباط تجربة الحب في شعر (سعيد الصقلاوي) بالغربة — أحياناً — في بعض قصائده ، ومما يعزز هذا الاحتمال أننا نلمح في هذه القصائد ، طابع الاعتزاز بالتاريخ العُماني ، وتراث الآباء والأجداد ، ومن شعره في ذلك المجال ، قوله في قصيدة « ترنيمة الأمل » التي نرى فيها أيضاً اتخاذ الحبيبة رمزاً للوطن^(٢) :

(١) انظر : المبحث الثالث من مباحث هذا الكتاب : « عن الغربة والحب في شعر هلال العامري وانظر : المدخل إلى القُد الأدي الحديث — ص ٥٧٨

(٢) ديوان ترنيمة الأمل — ص ١١٥ وما بعدها .
١٠٢

من حولي .. الليل زلال سوداء
تتكسد في صدى الأشياء
تتغلغل في أغوار الأعماق
الذكرى توقد أشواق
نار عطشي

إحراق يلهب إحراق
والريح تبعثر أوراق

أواه .. ياتعب الغرباء .. !

وقوله في قصيدة « أنت لي قدر^(١) » :

في بحر شعرك الجميل .. أبجر
وروض خدك المنضير أزهر
وهمس عينك الخنون أسفر
مسافر أنا .. وأنت لي قمر
وأنت لي هوى .. وأنت لي قدر
وشاطئ الأمان .. بهجة العمر

أجول .. كالبهار في إحساسك
أصير في هواك مثل النياسك
واشتقت أن أكون لغزاً في ظنونك

(د) الصور والبيئة العمانية : —

وفي شعر سعيد الصقلاوي ، تبرز ظاهرة تصويرية وتعبيرية ، تكسب بعض قصائده ، طابعاً فنياً مميزاً ، وأعني بذلك : اهتمامه باستichاء بعض صوره من

(١) ديوان أنت لي قدر — ص ٩٧ ، ٩٨

البيئة العُمانية ، بما تحفل به من مناظر طبيعية ، وتقاليده ، وأزياءه ، واختياره بعض المصطلحات العُمانية المحلية ، التي لا يعرفها إلا أهل عمان ، ولذلك نراه يضع لها تفسيراً في هوامش الديوان ، وقد لاحظت بروز هذه الظاهرة التصويرية والتعبيرية في ديوانه الثاني ، بينما نادراً ما نجد لها في ديوانه الأول ، وظاهرة استيحاء الصور الشعبية ، والتعبيرات المحلية ، من الظواهر التي اعتبرها بعض نقاد الشعر الحر ، في الخمسينات والستينات ، مكسباً من المكاسب الفنية التي حققها الرواد الأوائل للشعر الحر ، وعلى رأس هؤلاء النقاد ، الذين أبرزوا هذه الظاهرة في الشعر الحر ، وأشادوا بها ، الناقدان : محمود العالم والدكتور عبد العظيم أنيس — في كتابهما الذي عنوانه « في الثقافة المصرية (١) » .

ولقد استشهد هذا الفريق من النقاد بنماذج من الشعر الحر التي توضح ذلك الطابع ، ومنها : قصيدة « الملك لك » لصالح عبد الصبور (٢) ، حيث نجد فيها هذه التعبيرات الشعبية المستمدة من أساطير وتقاليده البيئة المصرية « وتهتف أمي .. باسم النبي » « المصطبة » « وبالغول في قصره المارد » « وحورية في جوار السرير » « والسندباد بالعاصفة » (٣) .

كما يستشهد ذلك البعض بقصيدة أخرى لعبد الرحمن الشرقاوي — نجد فيها رفاق الصبا يسألونه عن القصور التي رآها في القاهرة ، فيجيبهم قائلاً « فقلت اسمعوا يا عيال .. القصر دارٌ بحجم البلد » .. وذلك طبعاً بعد أن يسألوه قائلين : « فقالوا القصور ؟ وما هذه ؟ فأنا لنجهلها .. يا وكَلْد .. ! » (٤) .

ومن قصائد الشاعر سعيد الصقلاوي التي يتضح فيها ذلك الطابع الشعبي : قصيدة (ترجيع) والتي أرى أن الشاعر يتخذ فيها الحبيبة — أو المعشوقة السمراء رمزاً للوطن (٥) :

(١) نشر دار الفكر الجديد — بيروت ١٩٥٥ م

(٢) ديوان « الناس في بلادى » ص ٧٤ .

(٣) انظر : « حوار مع الشعر الحر » ص ٥٦ وما بعدها — دكتور سعد دعيس .

(٤) المرحع السابق — المكان نفسه .

(٥) ديوان أنت لي قدر ص ٦٧ ، ٦٨

وأبعث مع هبوب (الكوس) آهاتي وأشجاني
إلى مَنْ هَزَّ أحشائي هواها .. شق كتمانى .. !
وشاغلنى صغيراً كنت .. شب اليوم نيراني
والمح في الدجى (سنبوكنا) .. مازال منتظراً^(١)
وما زال الهوى في صدره للبحر مستعرا
ينادى (النوخذا) لكنه قد غاب واندثر^(٢)
(وأنجره) العظيم بجسمه الداء الخيث سرى^(٣)
على لباته المجذاف ييكى عمره الخضرا .. !
يداعبه أنى .. والدهر نخلّى كفه حجرا .. !
يجوس بطرفه الأيام باطنها وما ظهرا
هنا جدّى .. هنا عمى وخالى عاد منتصرا .. !

ولنتأمل هذه الصورة الشعبية الجميلة لمواكب استقبال العائدين من رحلات
البحار :

زهور الحب .. فى جذل خرجن إليهمو زُمرا
بأثواب مشى التاريخ فى خيطانها عبرا
ويحملن المباخر فاح فيها المجد وانتشرا
يرجعن الأناشيد التى قد ماثلت زهرا
على أنغام (ميدان) و(دندان) سمّت صوراً^(٤)

ولنتأمل أيضاً هاتين الصورتين الشعبيتين الآخرين ، وفى الأولى يتخيل
ما يقرب من المونولوج الداخلى الذى يصور أعماق حبيبة ثائرة على القيود
الرجعية :

دُعوا بخورى حرةً توضع بالتودد
فى صدره وزنده .. وشاله المتجدد

(١) السنبوك . نوع من أنواع السفن العمانية .

(٢) الوحدا . ربات السفينة .

(٣) الأبحرة . مرساة السفينة [انظر هامش ص ٦٧ ، ٦٨ من ديوان أنت لى قنر] .

(٤) القصيدة السابقة نفسها ص ٦٨ ، ٦٩ .

أميرة تحتله .. تتيه في تفرد .. !
وعطر ثوبى الحرير ذلك المهند .. !
يشتاقه في ألف موعِدٍ ودُون موعِدٍ
خواتمي تهفو له .. وبدلتى .. ومعضدى
لنى أحبه .. وكيف لا أحب مسعدى^(١)

وفي الصورة الأخرى يقدم لنا صورة شعبية أخرى للملابس الفتاة العمانية ،
وحليها ، وأدوات زينتها ، وعطرها :

وفي خيوط ثوبك المذهب الإشراف
ورثة الخلخال فوق حجلك البراق
وحمرة الياقوت في شفاك الرقاق
والكحل في عيونك النورية الأحداق
والطيب في ثيابك الصورية المذاق^(٢)
يعربد الهوى بها .. وتصرخ الأشواق^(٣)

وعلى الرغم من روعة هذه الصور الشعبية ، وتميزها الفني ، الذى يكسب
الشعر خصوصية تقربه من الوجدان الشعبى ، وتجعله معبراً عن ضمير الأمة ،
وحافظاً لتراثها وتاريخها .. على الرغم من ذلك ، فهناك خطر ماثل فى
استخدام بعض المصطلحات المحلية غير المعروفة فى الأقطار العربية الأخرى ،
مثل : « الكوس » و « السنوك » و « النوخدا » و « الأبخرة » فهذه
المصطلحات قد يكون لها وقعها المؤثر وجدانياً وتصويرياً لدى القارئ
العُمانى ، ولكنها قد لا تعطى الإيجاء نفسه ، أو الانطباع نفسه ، لدى القارئ
العربى فى الأقطار العربية الأخرى ، وقد تعوق التدفق الوجدانى ، والأنسياب
الفكرى للقصيدة ، حيث يضطر القارئ العربى — غير العمانى — أن يتوقف
للنظر فى الهامش والبحث عن معنى هذا المصطلح أو ذاك .. وأياً كان الأمر ،

(١) من قصيدة « صهوة القمر » ص ٨٠ (والخواتم والبدلة والمصعد : مصوعات عُمانية) انظر —
هامش ص ٨٠ — من ذلك الديوان .

(٢) كلمة « الصورية » نسبة إلى مدينة (صور) بسلطنة عُمان .

(٣) من قصيدة « أنت لى قدر » ص ٩٩ — من ديوان « أنت لى قدر » .

فهذه الظاهرة ظاهرة تختلف فيها وجهات نظر النقاد المعاصرين ، وتحتاج إلى مناقشة موضوعية ، ومراجعة جادة من الشعراء والنقاد وعلماء اللغة (١) .. !

(هـ) موسيقاه : بين التراث والمعاصرة : —

والشاعر سعيد الصقلاوى يمتاز بطابع الاعتدال في نظريته إلى موسيقى الشعر ، فهو كشاعر معاصر ، لم يندفع مع الحماسة الهوجاء لشعر التفعيلة ، تلك الحماسة التي وصلت بذلك الشعر إلى القوالب النثرية الجافة .. ! ، ولم يندفع أيضاً مع التطرف التقليدي الذي يعادى شعر التفعيلة ، بل وقف موقفاً يميل إلى الوسطية التي تستفيد من كلا التيارين ، ونستطيع أن نجد ذلك الموقف واضحاً في ديوانه الأول ، كما هو واضح في ديوانه الثاني ، ولكنه في كلا التيارين يحافظ على أن يكون للإيقاع الموسيقى ، دوره الملموس المؤثر في أدواته التشكيلية ، إنه يحافظ على موسيقى الخليل بن أحمد ، ولكنه يحاول — أحياناً — تطوير بعض أوزانها ، ولعل أوضح مثال لذلك التطوير المعتدل ، نجده ماثلاً في قصيدته (إهداء) التي جاءت على وزن (المتدارك) : فأياتها في المقطع الأول تسير رباعية التفاعيل ، ماعدا البيتين الأول والأخير ، فهما خماسيا التفاعيل :

لـكـ وُحـدـلـبـ ..	أنت أغنى يا حُبـي	← خمس تفعيلات
ولغيرك .	ما نظرت عيني	← أربع تفعيلات
ولغيرك ما سمعت أذنى		← أربع تفعيلات
وبحبك ..	يا شمس الكـوـن	← أربع تفعيلات
صوَّرت الدنيا في معنى فنى (٢) .. !		← خمس تفعيلات

وبعد هذا المقطع تسير المقاطع التالية على نظام رباعي التفاعيل ، كما في المقطع الآتي :

(١) انظر : « حوار مع الشعر الحر » ص ٥٦ — ص ٥٩ — دكتور سعد دعيبس .
(٢) ديوان « أنت قدرى » ص ٧ .

ولأجلك قد صُفْتُ الشُّعْرَا
وعشقت على الشفق التبرَا
من طيبك طُيِّبَ العطرَا
وبحسبك قُدِّسَت السُّحْرَا
سافرت بأحلامي .. دهرَا
وزرعْتُك في قلبي .. زهرَا
وحلستك في نفسي .. فكرَا
وجعلتكَ .. دستورى الحرا
ونقشتك في صدرى .. ذكْرَى

ولكنه بعد هذا المقطع ومقطعين آخرين ، يأتى بمقطع خماسى التفاعيل ، على النحو الآتى :

أقسمت بحقك .. لأرضى بسواك
لا أعرف لحناً فى عمرى .. إلّاك .. !
لا أرسم حرفاً ما فيه ذكراك .. !
وعيونى لا يشرق فيها غير سنالك
وعروقي لا يهدر فيها غير هوائك
وفؤادى لا يتسفس غير شذاك
عنواى فى كل الدنيا .. عيناك .. !
يا حرز حياتى النورانى .. وملاكى .. !

أما المقطع الأخير من القصيدة ، فيتكون من بيتين ، على نظام ثلاثى التفاعيل ، ولكن التفعيلة — الثالثة — لم تحىء على وزن تفعيلات (المتدارك) وإنما جاءت على وزن (فَعْلَاكُنْ) :

فأنسا لك مثلك .. أغننى .. !
وأنا لك .. أقيدى قننى .. !

وهكذا جمع الشاعر فى قصيدة واحدة بين التشكيل الخماسى والرباعى والثلاثى ، على نحو من التجديد الموسيقى الذى يقترب من النمط الذى نادى به

(نازك الملائكة) في كتابها « قضايا الشعر المعاصر »^(١) حين نادت بأن يجمع الشعر الحر بين وافي البحر ومجزؤه ومشطوره ، وطبقت ذلك على قصيدتها « إلى العام الجديد » التي جاءت على تفعيلة بحر « الكامل » :

يا عامٌ .. لا تقرب مساكننا فنحن هنا طيوف
 مِنْ عَالَمِ الأشباح ينكرنا البشرُ .. !
 ويفرُّ منَّا الليل والماضي .. ويجهلنا القَدْرُ .. !
 ونعيش أشباحاً تطوَّف
 نحن الذين نسيرُ .. لا ذكرى لنا
 لا حُلَمَ .. لا أشواق تُشرقُ .. لا مُنى
 آفاقُ أعيننا رماذ
 تلك البحيرات الرواكذ في الوجوه الصامتة
 ولنا الجباه الساكنة
 نحن العُراة من الشعور .. ذوو الشفاه الباهتة
 الهاربون من الزمان إلى العَدَمِ
 الجاهلون أَسَى الندم^(٢)

وفي كثير من قصائد الشاعر (الصقلاوي) نجد تنوع القافية ، وهو تنوع يقترب أحياناً من قالب التنوع في قالب ترائي معروف ، ألا وهو : الموشحات ، ومن أمثلة ذلك قصيدته التي عنوانها « والله أهواك » التي يقول فيها^(٣) :

أهـواك .. أهـواك والقلب يـرعـاك
 في العين سـكـناك في النفس مـرسـاك
 في السـدَمِ مـجـراك في السـرـوج مـسـراك
 أهـواك .. أهـواك

★ ★ ★

(١) انظر هذا الكتاب ص ١٢٢ — ص ١٢٥ .

(٢) ديوان « قرارة الموجة » لنارك الملائكة — طبع دار العلم للملايين — بيروت .

(٣) ديوان « أنت قدرى » ص ٦١ وما بعدها .

من سحرِكَ العذبِ يا حَبَّةَ القلبِ
شردت لي لُبِّي في غمرة الحبِّ
منكِ الهوى يَسْهِى يا حلو مرآكِ
ما عشتُ أهواكِ

★ ★ ★

أفديكِ بالعُمُرِ يا مَنْ لها أُمُرِي
منكِ الشذى يَسْرِى يا بسمَةَ الزهرِ
في السر والجهرِ أَشْواقَ نجواكِ .. !
أحيا بذكراكِ .. !

★ ★ ★

هذا لَوْنٌ من التطوير المتَّرن للقصيدة العربية الذى يحافظ على التواصل الفنى بين أجيال القصيدة العربية فى عصورها السابقة واللاحقة ، ويحافظ على أهم مقوم من مقومات القصيدة العربية وهو الموسيقى ، وأى تطوير لا يرتبط بالجدور التاريخية للأمة فى أى مجال من مجالات الفكر والثقافة ، محكومٌ عليه بالفشل ... !

إن التطور هنا امتداد لتطور الموشحة الأندلسية ، وامتداد لتطور مدرسة الديوان ، ومدرسة أبولو ، ومدرسة المهجر ، ومدرسة الرواد الأوائل للشعر الحر .. أيضاً .. وليس امتداداً لتيار القوالب النثرية .. وقصائد المثلثات والمربعات .. وقصائد الغموض العبثى الذى يغلف بمثاهاته وسراييه إنتاج بعض شعراء هذه الأيام ، والذى لا يمكن أن يخلق أى انسجام فكري ، أو شعورى ، بين أفراد المجتمع ، ما داموا عاجزين عن معاشة هذا الشعر وتذوقه ، لأن شاعر الألغاز المعاصر ، الذى يعود بنا إلى ألغاز عصر المماليك وأحاحيه وتأريخه بالشعر .. هذا الشاعر لا يقدم لنا ، المفاتيح الفنية التى تفضى بنا إلى سرايب التجربة الشعرية ، ومنحنيات الرموز المعقدة ، وتركنا وخذنا فى عتمة الضباب المفتعل ، نحاول إضاءة الوقت فى حل ألغازه المماليكية .. ، وخوائه الفكرى .. والفنى أيضاً .. !

المبحث الخامس

(مع شعراء الشباب بجامعة السلطان قابوس)

عاصم السعيدى

بين

المعارضة التراثية

والرؤية الرومانسية

حين أتحدث عن البدايات الأولى لحركة الإبداع الأدبي لدى طلاب جامعة السلطان قابوس ، فقد يبدو الأمر سهلاً ، إذ أن الجامعة قد بدأت مسيرتها العلمية والثقافية منذ ثلاثة أعوام^(١) ، ولكن الأمر يختلف حين يرتبط الحديث بمولد تيارات ثقافية وأدبية ضاربة بجذورها في ضمير الأمة وتاريخها وتراثها ، ومؤثرة في حاضرها ، ومبشرة بمستقبلها ، فكثير من هؤلاء الشباب المبدعين ، لم تولد مواهبهم مع بداية الجامعة ، وإنما ولدت هذه المواهب معهم يوم وُلدوا ، وأعلنت عن نفسها بين الحين والحين في مراحل دراستهم الإعدادية والثانوية ، وإذا كان للجامعة من فضل عليهم فذلك الفضل يرجع إلى المناخ العلمي والثقافي في الجامعة ، فالجامعة قبل أن تكون محاضرات ومقررات ، هي أيضاً — وفي المقام الأول — مَنهَجٌ للفكر ، ورؤية جديدة للوجود والكون والحياة والمجتمع ، وحوارٌ دائم بين المناهج والأفكار ، وتفاعل خلاق بين التيارات الفكرية والاتجاهات الثقافية ، ومن ثَمَّ .. فلا عجب إذ تهباً للمبدعين في مجالي : الشعر والقصة وغيرهما ، مناخ يرحب بالمواهب الجديدة ، ويصقلها ، من خلال الاجتماعات التنظيمية للجماعات الثقافية ، والندوات والأمسيات الشعرية والقصصية ، وحفلات الأعياد القومية والمناسبات الدينية ، وغيرها .. !

لقد بدأت أولى الجماعات الأدبية ، مع إشراف الحياة الجامعية .. وُلدت مع جماعة « الخليل بن أحمد » مشمولة بالرعاية الكريمة من عمادة شؤون الطلاب ، وكان لي شرف الأبوة الروحية لها ، وانضم إليها طلاب عديدون من مختلف الكليات برزت مواهب كثير منهم في الأمسيات الشعرية والقصصية ، وآنا لنا أن نقف من هذه المواهب موقف دراسة ونقد .. موقف مراجعة لمسيرة ذلك الإبداع الأدبي لدى طلاب الجامعة وقد آثرت أن أبدأ هذه المجموعة من الدراسات بالطالب الشاعر : (عاصم السعيدى) الطالب بكلية الهندسة :

إذا كانت مرحلة الطفولة ، هي مرحلة الإرهاصات الأولى للإبداع الفني والأدبي ، فقد كانت هذه المرحلة بالنسبة لعاصم السعيدى ، من أكبر العوامل

(١) كتبت هذه الدراسة عام ١٩٨٩ م .

التي فجرت في أعماقه النبع الأول لأحزان الرومانتيكية — أو (الهروية) (١) — كما أُوتِرُ أن أسميها — بقلقها وانطوائها ، واغترابها في الزمان والمكان ، وهروبها من عالم الواقع الزائف — في نظرها — إلى عالم البراءة والحلم .. والنقاء والطهر .. عالم المدن الفاضلة المثالية .. !

فقد ولد ذلك الشاعر عام ١٩٦٨ ، في بيئة غنية بمناظر الطبيعة الساحرة .. في قرية عُمانية صغيرة ، تسمى (قلعة بنى سعيد) في قلب سلسلة من جبال الحجر الغربى ، وهى قرية رائعة الجمال بها أفلاج ونخيل ، تلتقى بها الجبال بالأفلاج والنخيل ، لتقدم للشاعر لوحة رائعة لبراءة الفطرة النقية ، وصفاء الأرض حين يلتقى بصفاء السماء .. !

ولكن الطفل الحالم .. لا يسعد في طفولته بهذه البيئة الفياضة بحنان الأم وحنان الطبيعة .. بل يتجرع العُربة وآلام الضياع ، حين يرحل مع أبيه ، وهو في الخامسة من عمره إلى دولة الامارات العربية المتحدة ليلتحق بإحدى مدارسها ، نظراً لصعوبة التعليم في عُمان قبل النهضة المباركة (٢) .

وهكذا بدأت رحلة الغربة والضياع في حياة ذلك الشاعر منذ الخامسة من عمره .. حيث نشأ بعيداً عن حنان الأم ومهد صباه الحبيب في قريته الصغيرة الحاملة .. وافترقت الكثير من الرعاية والحب .. بينما كان في أمس الحاجة إليهما . !

(١) أرى أن مصطلح « الرومانتيكية » الذى أطلق على تيار من تيارات الشعر العربى الحديث ، لا يتفق مع واقع ذلك التيار ، والأفضل منه : مصطلح « الهروية » .. لأن الرومانتيكية كانت تمثل تياراً عاماً ، ساد المجتمع الأوربى ، نتيجة لتيارات فلسفية ، تدعو الى تحطيم سيطرة العقل ، وتنادى بتحكيم العاطفة ، وتمجيدها ، والعودة الى أحضان الطبيعة والبعد عن عالم المدن الزائفة ، أما الهرويون العرب فلم يساندوهم تيار فلسفى عظيم ، وامتداد كبير في بقية ألوان الفنون بالشكل الذى ظهر في أوربا .. ، وفصلاً عن ذلك فقد نشأت الرومانتيكية في أوربا نشأة ثورية ، اذ كانت الوحة الأذى المعبر عن الثورة الفرنسية ، بينما كانت الهروية العربية من بدايتها لنهايتها محاصرة بالكائيات واليأس والعُربة والموت .. ! وقد ناقشت هذه القضية حين ناقشت أزمة المصطلحات النقدية في كتابين من كتبى ، هما : (الغزل في الشعر العربى الحديث) ص ٦٦٩ وما بعدها ، و (حوار مع قضايا الشعر المعاصر) ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) من مذكرات مخطوطة للطالب الشاعر : عاصم السعيدى .

لقد وضعه والده في القسم الداخلي بإحدى المدارس في دولة الإمارات العربية المتحدة ، لعدم وجود منزل للأسرة في البلد الذي كانا يقيمان به .. ومن ثم كان يقضى العام كله بين فصول الدراسة ، وكانت إقامته بالقسم الداخلي إقامة أقرب إلى العزلة الخزينة .. حيث لا تكتحل عيناه طوال العام برؤية أمه الحنون ، أو رؤية أحد من أهله ..

وسنرى بعد ذلك أن أحزان اغترابه ، وهو طفل بدولة الإمارات كانت أهم الروافد التي أثَّرت في تجربة الغربة في شعره .. بالإضافة إلى طبيعته الانطوائية القلقة ، وقراءاته العديدة في روائع الشعر الرومانتيكي ذى الطابع الهروى ، فقد تأثر تأثراً شديداً — كما يقول — وكما يتضح في إبداعه الشعري ، بشعراء المهجر الأمريكي ، وعلى الأخص : تلك القصائد التي تفيض بالقلق والحزن والتأمل ، لجبران ، وإيليا أبى ماضى ، كما تأثر بشعراء رومانتيكيين آخرين كأبى القاسم الشابى والدكتور إبراهيم ناجى ، وعلى محمود طه .. وكلهم من أعلام الشعر الرومانتيكي العربى الحديث .. ولعل أهم شاعرين معاصرين أثرا فيه تأثيراً شديداً ، هما : عمر أبو ريشة ، ونزار قباني — الذى يسميه (شاعر القرن العشرين) ..

ولكن هذه المؤثرات الرومانسية لم تنفرد بشخصية ذلك الشاعر الشاب فقد أتاحت له في المرحلتين : الإعدادية والثانوية بعضُ القراءات التراثية التى كان لها أيضاً تأثيرها في إبداعه الشعري ، وهو يعترف في مذكراته ، بأن أول ديوان شعر قد امتلكه ، كان ديوان عنتره بن شداد ، وقد قرأه مرات عديدة وهو في الصف الثانى الإعدادى ، وحفظ معظم قصائده عن ظهر قلب ، كما حفظ الكثير من أبيات المعلقات ، وعشق شعر المتنبى — حسب تعبيره — عشقا شديداً ، وحفظ المئات من حكمه الشعرية ، ولاعجب إذن إذا وجدنا أن ظاهرة المعارضات التراثية من أبرز الظواهر الفنية في شعر (عاصم السعيدى) .

نحن — إذن — أمام اتجاه شعري مميز ، تُلغى فيه الحدود بين المذاهب الأدبية ، ويلتقى في نهره أكثر من رافد ومنبع ، وأكثر من تيار واتجاه ، ويمكن أن نوجر هذا اللون من الشاعرية الذي يصادفنا أحيانا في الشعر العربي الحديث ، والذي يصادفنا أيضا في شعر الطالب (عاصم السعيدى) بأنه مزيج متكامل من التراثية والرومانسية حيث تلتنقى المعارضات التراثية المتأثرة بروائع التراث ، بالرؤية الرومانسية الهروبية للكون والوجود والحياة .. ولنبدأ بظاهرة : —

(أ) المعارضات التراثية : —

من الطبيعي لشاعر يبدأ مسيرته الشعرية ، أن يبحث في أعماق نفسه ، وفي البيئة الثقافية من حوله ، وعبر قراءاته المستمرة في الشعر قديمه وحديثه ، عن النموذج الشعري المفضل لديه ، أو لنقل عن المثل الشعري الأعلى الذي يأسر له ووجدانه حين يقترب من عالمه ، وما من شاعر في الماضي أو الحاضر الاً وكان له أب روحى هام بشعره ، وتلمذ عليه ، أو — على الأقل — تأثر به في مرحلة ما من مراحل إبداعه .. ولا تصدقوا خرافة : (جيل .. بلا آباء) و (جيل بلا أساتذة) لا يصدق ذلك على الشعراء القدامى فقط ، بل يصدق أيضا على شعراء الحداثة المعاصرين ، وها هو ذا الشاعر صلاح عبد الصبور — أحد رواد التجديد المعاصر — يعترف بذلك قائلا^(١) : —

« وقد حاكيتُ الشعرَ أول ما حاولته محاكاة للنماذج التى أحببتها ، وعندى قدر لا بأس به حاكيت فيه المتنبي ، وقدر آخر لا بأس به حاكيت فيه أبا العلاء ، ثم قدر آخر حاكيت فيه بعض الشعراء المعاصرين كابراهيم ناجي ومحمود حسن اسماعيل ، ولكنى رغم إعجابى بهؤلاء الشعراء الأربعة ، توقفت فترة من الزمن ، لأسأل نفسى : ما الشعر ؟ وقد وجدتُ كُلاً منهم قد أجاب على جانب من سؤالى ، وكان توقفى إثر قراءة بعض النماذج فقد قرأت

(١) مجلة الآداب (البيروتية) عدد مارس ١٩٦٦ ، ص ٨

(ريلكه) فى ترجمة انجليزية ، وقادى الصديق بدر الديب ، والصديق عبد الغفار مكارى إلى شعر (إليوت) وقصص (كافكا) ..

ومن الطريف أن معارضات (صلاح عبد الصبور) تتخذ لها مجالا آخر فى عالم المعارضات ، حيث نراه أحيانا — يعارض بعض قصائد لشعراء أوربيين ، ومن ذلك معارضته (لإليوت) بإحدى قصائد ديوانه (الناس فى بلادى) وهى قصيدة (المُلْكُ لك) التى يعارض بها قصيدة (إليوت) التى عنوانها (الرجال الجوف The Hullo men) وإن كان ذلك اللون من المعارضات للشعر الأوربى لم يمنعه من معارضاته للجوانب الخصبية فى التراث العربى — كما يتجلى فى قصيدته (مذكرات الصوفى بشر الخافى)^(١) .

وحسبنا أن نشير فى هذا المجال لإبراز الجوانب الخصبية فى شعر المعارضات — مخالفين فى ذلك الغالبية من النقاد والمعارضين الذين يهاجمون المعارضات — يدغوى كراهيتهم للتقليد — حسبنا أن نشير الى مثل واحد تقدمه من شعر (أبى الحسن على بن عبد المُنْغْنى الحصرى) — أحد شعراء القيروان — وصاحب قصيدة (ياليل الصب .. متى غده .. ؟) لقد أرسل لى أحد الأصدقاء التونسيين ، وهو أيضا أحد كتاب تونس البارزين ، الأستاذ محمد الصادق عبد اللطيف ، دراسة له عن هذه القصيدة ، وقد أثبت فيها أن عدد الشعراء الذين عارضوا هذه القصيدة قديما وحديثا قد بلغ المائة ، ومعظم هؤلاء المعارضين هم من أعلام الشعراء العرب ، ممن طبقت أسماؤهم الآفاق ، ويذكر صاحب الدراسة منهم : (ابن الأبار) صاحب « تكملة الصلة » — لابن بشكوال — وإسماعيل الزبيدى البغدادى ، وشمس الرئيسى الحسينى الشهير بالحصرى الدمشقى ، ومصطفى خريف ، وأبو القاسم الشافى ، ومحمود بيرم التونسى ، وأحمد شوقى ، وإسماعيل صبرى باشا ، ومحمود رمزى نظيم ، وبشارة الخورى (الأخطل الصغير) وفوزى المعلوف ، وخير الدين الزركلى ،

(١) انظر هذه القصيدة فى ديوانه (أحلام الفارس القديم) ص ٩٧ .

استطاع الشاعر أن يقدم هذه المأساة ، من خلال مجموعة من اللوحات التصويرية المتتابعة في بساطة تعبيرية أخاذة ، أقرب الى براءة الطفولة ونقاها ، معتمدا على بناء درامى ، يقدم رؤية الشاعر للمأساة ، من خلال بعض الأحداث المرسومة المتتابعة ، ومعتمدا أيضا على مجموعة من الشخصيات ، هى : الشاعر والجد والأم ، بالإضافة الى شخصيات أخرى .. هى شخصيات أطفال القرية وشخصية المذيع ..

ولنتأمل تتابع الأحداث حتى بلوغ دروة التعقيد المساوى فى هذه القصيدة ، فى قوله :

حَقًّا .. أَيَا وَطَنًا تَبْكِي مَا ذُنُّهُ	يَوْمًا سَتَعْرِفُنِي .. يَوْمًا سَتَلْقَانِي
أُمُّ أَنَّهُ حَلَمٌ .. لِقِيَاكَ يَا وَطَنِي	وَسَوْفَ أَبْقَى طَرِيدًا .. دُونَ أَوْطَانٍ
مَذْكَ كُنْتُ طِفْلًا .. وَأَحْلَامِي تَرَاوَدْنِي	أَنْ أَلْتَقِيَ مَعَ أَحِبَّائِي وَخَلَائِي . ا
وَكَمْ سَمِعْتُ بِأَنَّ الْقُدْسَ قَدْ رَجَعْتُ	فَرَحْتُ أَنشِدُ لِلْأَضْوَاءِ الْخَالِي . ا
وَسِرْتُ .. أَخْبِرُ أُمِّي .. قَدْ سُنَّارِجَعْتُ	يَا أُمَّ .. فَلْتَطْفُنِي نَارِي وَأَحْزَانِي . ا
وَسِرْتُ . أَخْبِرْ جَدِي . كَيْ أَبْشِرَهُ	لَكِي يَقْلُنِي مِنْ صَدْرِهِ الْخَالِي . ا
أَخْبِرْتُ جِيرَانَنَا .. أَخْبِرْتُ قَرِينَنَا	عَادَتِ فِلَسْطِينَ .. يَا أَهْلِي وَجِيرَانِي ... ا
قُمْنَا مَعَ الْفَجْرِ .. أَءِ . ذُنَا حَقَائِبُنَا	وَالشَّمْسُ تَرْقُصُ .. فِي شِعْرِي وَالْخَالِي ا

لَكِنَّ صَوْتًا .. مِنَ الْمَذْيَاعِ .. أَيْقَظُنَا نَامُوا .. فَقَدْ سَكُومُ فِي كَفِّ شَيْطَانٍ . ا

ثم .. لنتأمل روعة تصوير شخصيات أطفال القرية ، حين سمعوا صوت المذيع يذيع أنباء المأساة .. بأسلوب ساخر (نَامُوا .. فَقَدْ سَكُومُ فِي كَفِّ شَيْطَانٍ) :

اللَّهُ .. كَمْ ذَبَحُوا أَحْلَامَ فَرَحَتْنَا	فَالدَّمْعُ فَاضَ .. كَثِيرٌ بَيْنَ وَدَيَانٍ
اللَّهُ .. يَا وَجْهَ أُمِّي .. كَيْفَ مَزَقَهُ	دَمْعُ الْأَسَى .. فَبَكَى فِي صَنْتِ إِيْمَانٍ . ا

وهزنى صمت جدى .. مثل مقبرة
وكيف مزقنى أطفال قريتنا
فيها شهيدٌ دفينٌ .. دونَ أكفانٍ .
لَمَّا بكوا.. فلعنْتُ الغاصبَ الجانى .
وهذا الشاعر — بالرغم من أحزانه العميقة — يمتلك أسلوباً ساخراً لا ذعاً
يستعين به على تعميق أبعاد المأساة :

مُذْ كُنْتُ طفلاً.. وأحلامى تُراودنى
قالوا.. وقالوا بأنَّ القدسَ قد رجعت
واليوم.. أسأل.. أين القدسُ.. شاعرنا
مذْ كُنْتُ طفلاً.. ووَصِلَ القدسُ تحلمه
قُلْ لى .. إلَّامَ سَتَبْقَى كُلُّ قوتنا
أَنْ ألتقى مَعَ أحبابى وخلانى
وَأَلْقُوا قصصاً مِنْ نَسِجِ بهتان .
فَأَنْتِ مِثْلِي طريدٌ دونَ أوطان ..
وَكَمْ نَحْدَعْتُ بتصرّيج وإعلان .
يوماً.. ستعرفنى.. يوماً ستلقانى ..!

مِنْ عَهْدِ جَدِّى.. رجوعُ القدسِ نحلمه
قد قال لى.. ستلقى القدسَ يا ولدى
ومات جدى.. ولا يدرى بما صنعت
قد مات جدى.. وأحلام الصبا دُفِنَتْ
ودمع أمى همى تبكى لفرقة
تَقُولُ .. أَيُّهُمَا يوماً سُنْدرِكُهُ
أَمْ تُنْذِرُكَ القدسَ.. أرضَ الحُبِّ يا ولدى
أنا.. وجدى.. وعند الموت أوصانى
وعندها .. يا فتى .. إياك تنسانى
أيديهم .. فى أزاهيرى وبستانى .
فى القبر.. واختنقت أحلامَ إنسانى .
تبكى لجدى.. وتبكى قُدْسَنَا الفانى .
جد حزين .. مضى للعالم الثانى
فمنظر القدس فى الأغلال أبكائى .

والله .. يا أُمُّ .. لا أَذْرى فَوَا أَسْفَى
أَبْكِي على القدس.. أُمُّ أَبْكِي لأشجائى !
أما المثال الآخر للمعارضات فى شعر (عاصم السعيدى) فيبدو فى قصيدته
التي عنوانها (الى فلسطين) ومطلعها :

عَلَى كَاهِلِ الأَيَّامِ يَمْضِي لى الدهرُ
وَأَقْهَرُ أَحْزَانِي.. فيقهرنى القهرُ^(١)

(١) إحدى قصائد الديوان التي لم تنشر بعد .

وهو يعارض بها قصيدة للشاعر العباسي (أبو فراس الحمداني) وهي إحدى روائع أبي فراس ، ومطلعها :

« أراك عصي الدمع شيمتك الصبر .. الخ البيت » .

وحين نتأمل قصيدة (عاصم السعدي) سنرى أنها لم تلتق مع قصيدة أبي فراس إلا في الوزن والقافية ، فكلاهما من بحر الطويل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن) — وعلى الرغم من تنوع الأوزان في قصيدة « عاصم » فإن معظم أبيات قصيدته جاء على وزن « الطويل » .

وإذا تجاوزنا هذا الاتفاق في الوزن والقافية ، سنجد أن « عاصم » يشق لتياره الشعري ، مجرى خاصاً به ، في الموضوع والفكر والبناء التصويري ، فهو هنا يواصل مسيرته مع مأساة فلسطين التي بدأها في القصيدة السابقة : هيامٌ بحب فلسطين ، وبكاء غاضب ساخط على محتليها وغاصبيها ، ودعوة إلى الإنسان العربي المسلم لكي يتحول من ظاهرة صوتية إلى ظاهرة فعلية ، حيث تصبح الكلمة لديه موقفاً .. ! وبحيث تُلقي تلك الثنائية بين الإنسان الكلمة ، والإنسان الموقف .. ! بين الوردة .. والسيف .. والصلاة .. والبلد .. !

في أسلوب تصويري يعتمد على المفارقة الشعرية ، والسخرية اللاذعة يقدم (عاصم السعدي) لوحته عن مأساة فلسطين ، وهي مأساة يقوم الصراع فيها بين ازدواجيات متضادة .. بين : الحب الشديد ، والكراهية العنيفة ، بين : الشوق الشديد إلى الفعل الإيجابي ، والعجز الصامت السلبي ، بين : الحق الأعزل ، والباطل المدجج بالسلاح ، بين : الكلمات السراية الوهمية ، والكلمات المشرقة بتور الحق والقرآن .. !

ولنقدم نماذج من هذه الازدواجيات المتضادة :

(أ)

عَلَى كَاهِلِ الْأَيَّامِ .. يَمْضِي بَيْنَ الدَّهْرِ وَأَقْهَرُ أَحْزَانِي فَيَقْهَرُنِي الْقَهْرُ !
وَأَنْتُمْ آهَاتِي .. فَيَفْضَحْنِي الْكَرَى وَإِنْ قُلْتُ: صَبْرًا مَلَّ مِنْ صَبْرِي الصَّبْرُ
وَأَرْسِلُ أَشْعَارِي يَوْخِي تَأْمُلِي وَبَعْدَ سَنِينَ عَادَ أَدْرَاجُهُ الشَّعْرُ

★ ★ ★

(ب)

إِلَآمَ سَبَقِي .. كَالدَّخَانِ مَشْتَا تَفَرُّنَا التُّغْمَى وَبِجْمَعُنَا الدَّعْرُ
وَقَرَأْنَا أُمْسَى أَغَارِيدَ مُنْشِدٍ تُرْدِدُهُ لَفْظًا .. وَأَعْمَاقُنَا صَخْرٌ .. !
وَتَبَقِيَ فِلَسْطِينَ الْحَيِيَّةَ مَلْعَبَا لَغْدِرِ أَنْاسٍ .. كُلُّ شَيْئَتِهِمْ غَدْرٌ .. !

★ ★ ★

(ج)

عَنِيتُ بِقَوْلِي .. يَاشَابَبَ عَرُوبَتِي بَأْنَا أَنْاسٌ حَطُّ مِنْ قَدَرِنَا الْقَدْرُ
وَأَنَا أَنْاسٌ لَا تُكْرُ خِيُولُهُمْ إِذَا كَرَّتِ الْفِرْسَانُ وَانْهَكَ السُّتْرُ
لَنَا أَنْ نَقُولَ الشَّعْرُ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ فَصَوَّلَتْنَا شَيْعَرٌ وَجَوَلَتْنَا شَيْعَرٌ
عَلَى مِثْلَتَا مَاتَ حَضَارَاتُ أَهْلُنَا وَأَعْجَازُ أَهْلِ الْعَرَبِ قَدْ ضَمَّهَا الْقَبْرُ !
سَلَبَتْنَا أَرْضَيْنَا .. وَكُلَّ عَزَائِنَا كَلَامُ لِسَانٍ .. مَلَّ مِنْ ذِكْرِهِ الذِّكْرُ !
كَلَامٌ بِهِ تَحْيَا الْقَضَايَا يَتِيمَةً وَفِي ظِلِّهِ مَاتَ عُرُوسُنَا الْبَكْرُ !
فَلَيْتَ قَوَائِنَا تَصِيرُ سَفَائِنَا وَلَيْتَ بُحُورَ الشَّعْرِ ثَارَ بِهَا بَحْرٌ !
لِنَعْبُرَ نَحْوَ الْقَدْسِ وَالْكُلِّ شَاهِدٌ وَرَايَاتُنَا الْقُرْآنَ وَالْبَيْضُ وَالسُّمْرُ !

★ ★ ★

والشاعر في هذه القصيدة يركّز دعوته إلى اقتران الكلمة العربية بالفعل العربي ، تركيزاً قويا معتمداً على قالب تراثي ، هو : قالب الحكمة التي تتمتع فيها الفكرة بالعاطفة في صورة قصيرة سريعة خاطفة ، قوية الإيحاء ، وهو في هذه الحكم متأثر — إلى حد ما — بأبي فراس الحمداني ، كما يتضح في قوله :

فلا اخضرَّت الدنيا.. ولا هطل الحيا
ولا الخير مع أهل الخيانة نافع
ولا الصبر تحت السيف يجدى لصابر
ومن سار فوق الشوك جرح رجله
ومن ينتصر بالغير قل عزائه
وان لم يكن للسيف من يثني به
فلا ترحبوا نصراً ولو كان جيشكم
ولا طابت التعمى ولا غرد الطير
وعند أهالي الخير لا ينفع الشر
لكم صابر في الذل حطمه الصبر
ومن سل سيف الضر حطمه الضر
إذا كنت في ضعف فلن يقدم النصر
يقطع أعناقاً خصالها الغدر
بعد رمال اليد ، منكم صفر

★ ★ ★

وجدته بالذکر أن هذه القصيدة ، على الرغم من انتمائها الى عالم المعارضات
التراثية فإنها تنتمى أيضا الى عالم التجديد المعاصر ، فيما يتصل بالموسيقى ،
حيث تعددت فيها الأوزان : وزن « الطويل » في مثل قوله :

على كاهل الأيام يمضى لى الدهر وأقهر أحزاني فيقهرنى القهر . ا
ووزن « الكامل » في مثل قوله :

أنا ما عشقت الغادة الوستى ولا من تاه في الحاظها السكر
ووزن « الوافر » في مثل قوله :

سأبقى أعشق الأقصى أقول الشعر فى الأقصى .. ولا فخر

وعلى الرغم من أن معظم أبيات هذه القصيدة من بحر « الطويل » فإن
ظاهرة المزج بين عدة بحور من الشعر فى قصيدة واحدة ، كانت من أبرز
الظواهر التجديدية التى نادى بها دعاة التجديد فى الشعر العربى الحديث ، بدءاً
بالأبيات الأربعة التى أوردها (أحمد فارس الشدياق) (١٨٠٤ — ١٨٨٨)

في كتابه (الساق على الساق) كجانب من محاولته كتابة الشعر في نظم غير مقفى من بحور مختلفة^(١) .

ومروراً بخليل مطران الذى حاول استخدام أشكال وبحور مختلفة ، كما فعل عام ١٩٠٥ في قصيدته « نفحة الزهر » إذ قسمها الى خمسة أجزاء ، واستخدم نوعين من المقطوعات ، كما استخدم الوزن والقافية الموحدين ، منوعاً بين « الرمل » ومجزوء « الكامل »^(٢) .

ومعه أيضاً : الدكتور أحمد زكى أبو شادى الذى كتب نموذج الشعر الحر بتأثير من الشعر الأمريكى ، وهو قائم على مبدأ تجميع بحور مختلفة في قصيدة واحدة ، وتغيير الوزن في القصيدة الواحدة تبعاً لمتطلبات التجربة الشعرية^(٣) . ثم .. وانتهاءً بحركة الشعر الحر التى سارت بخطاً حثيثة في هذا المجال .

وإذا كان لى أن أضيف دفاعاً عن ظاهرة المعارضات لدى الشاعر الشاب عاصم السعيدى ، ولدى آباءه من التراثيين القدامى والحديثين ، بالإضافة إلى ما قلته سابقاً ، فإنى أرى أن مقياس نجاح الشاعر في هذه الظاهرة الفنية ، إنما يعود الى أصالة الشاعر الذى يستلهم هذه الظاهرة ، ومدى قدرته على أن يبدع من نخامة الأصل الذى يعارضه ، أثراً جديداً له مذاقه الخاص ، وكأنما خلقه خلقاً جديداً ، وجعل له تمثالا من نفسه وحياته ، وأصبح مبتكراً في التجربة التى عارضها ، كما يتكرر الممثل في انتحال أدواره وأبطاله ، فهو فتانٌ خالق في أثباعه ، كما يكون المرء فتاناً خالصاً في ابتداعه ، وفرقٌ بين هذا اللون من المعارضة التى لا تلغى شخصية المعارض ، وتقليد العاجز المتكلف الذى يظللُ

(١) انظر : كتاب « حركات التجديد في موسيقى الشعر العربى الحديث » ص ٢١ ، ص ٢٢ — تأليف : س . موريه — ترجمة وتعليق : د . سعد مصلوح .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٣) المرجع نفسه — انظر : هامش ص ٣٢ ، وانظر : ديوان : « الشفق الباكي » للدكتور / أحمد زكى أبو شادى ص ٥٣ .

في آثار القادرين بغير أداة المعارضة والمجاجة^(١) .. !

(ب) الرؤية الرومانتيكية في شعر عاصم السعيدى :

أشرت — سابقا — (في الجزء الأول من دراستى عن عاصم السعيدى)
إلى أن شاعرية ذلك الشاعر ، تقوم على دعامين أساسيتين ، ألا وهما :
(١) المعارضة التراثية .

(٢) والرؤية الرومانسية^(٢) للكون والوجود .

وآن لنا الآن — بعد أن تناولنا ظاهرة المعارضات التراثية في شعره — أن
نتناول الدعامة الثانية ، وهى : الرؤية الرومانسية للوجود والكون والحياة
والمجتمع — كما تبدو في شعره ، وقد أشرت في تمهيدى لهذه الدراسة (في الجزء
الأول منها) الى العوامل التى أثرت في ذلك الشاعر إبّان مرحلتى الطفولة
والشباب .. حيث عاش طفولة حزينة عانى فيها الغربة والحرمان من حنان
الأم .. بعيداً عن مهد صباه الحبيب في قريته الجميلة الحاملة .. ! وحيث أكثر
في مرحلتى الدراسة الاعدادية والثانوية من قراءاته في روائع الشعر الرومانتيكى
العربى الحديث ، وحفظ الكثير من روائعه .. ! وكان لابد لهذه المؤثرات أن
توجه شراع ذلك الشاعر الشاب الى تيارات الرومانسية الحائرة المعذبة ،
الحزينة الباكية ، المغتربة في مجتمعتها ، الباحثة عن (يوتوبيات) المدن
الفاضلة ، كما تبدو في الطبيعة الشاحبة ، والغربة المنطوية ، والتأملات السابحة
في عالم ما وراء الحياة .. !

ويكاد (عاصم السعيدى) يجسد لنا في كثير من قصائده ملامح الشخصية
الرومانتيكية التى تتسم بما يأتى :

(١) انظر : شعراء مصر ويقاتهم في الجيل الماضى ص ١٣١ وما بعدها — لعاس العقاد ، وانظر : الغزل
في الشعر العربى الحديث — دكتور سعد دعبس — ص ١٢٦ وما بعدها .

(٢) أعنى — كما أشرت سابقا — الرؤية المروية للكون والوجود — راجع : رفضى لمصطلح
الرومانتيكية في كتاب (حوار مع قضايا الشعر المعاصر) نشر دار الفكر العربى بالقاهرة
ص ٥٣ — ص ٩٩ .

- (أ) القلق الحائر ، وعدم الرضا بالحياة .. !
- (ب) الحزن الذى يغلب على النفس فى كل حال ، دون أن يجد له الانسان سببا ، ولهذا يعتصم الرومانتيكيون من الواقع بالانطواء على نفوسهم ، ونشد ان مثل أعلى لهم هو الجمال .
- (جـ) والرومانتيكى غريب فى عصره بشعوره واحساسه ، لأنه يحس بالتفرد والعبقرية .. ! ولذا فالألم والدموع علاج لنفسه المرهفة المتفردة ، إنه يحب الحياة الغامضة ، ويضيق ذرعا بالأشياء الثابتة المستقرة^(١) .. !
- ومن هنا ... فهو مغترب زمانيا ومكانيا ، ويبحر المرء فى ذلك الاستسلام العجيب للأسى المبرح المائل فى الأدب الرومانتيكى .. إنهم يحسون بنوع من اللذة المروعة أشبه بتلك اللذة الدامية التى يجدها المجروح إذا أثار جرحه المندمل^(٢) .. ها هو ذا بطل رومانتيكى يصوره « شاتوبريان » يفتخر بآلامه ، ويرى « أن سعادته فى شقائه » : « La joie d'être malheureux » يقول ذلك البطل : « كنت أجد نوعاً من اللذة الغامضة فى حزنى المروع المبرح ، ويتراءى لى فى حزنى حركة غامضة مبهمة توحى بالسعادة ، ذلك لأن الألم ليس إلا لذة » .
- (د) والرومانتيكى يريد أن يترك الحياة عمدا لو لم تربطه بها صلة : « لقد كنت أريد أن أترك هذا العالم قبل إذن الواحد القهار ، ولكن كنت أدرك أن هذا جريمة عظيمة » .
- ومن العجيب أننى لم تُعدْ لدى رغبة فى الموت منذ أصبحت شقيا

(١) الرومانتيكية — للدكتور محمد غيمى هلال — ص ٣٦ — ص ٤٨ .
 (٢) انظر كتاب « تيارات أدبية بين الشرق والغرب » للدكتور ابراهيم سلامة — ص ٣٠٢ .

بائساً ، لقد غدت أحرزاني الشغل الشاغل الذى يملأ لحظات حياتي^(١) .

وحين نتأمل كثيراً من قصائد (عاصم السعيدى) نجدتها تصور شخصية أقرب الى هذه الملاح الرومانسية السابقة ، فعاصم — كما يبدو فى هيئته القلقة المتسمة بغير قليل من الانطوائية والحيرة ، والحزن الغامض ، وكما يبدو فى شعره ، يجسد هذه الملاح تجسداً قويا ، ففى شعره أكثر من قصيدة تتراءى فيها أحزان الغربة والعزلة والرحيل والنفى الدائم .. !

هذه الغربة الانطوائية القاسية تبدو — مثلاً — فى قصيدته (عودة الى الموت) ، والتي يقول فيها :

عُدْتُ وَخَدِي .. صامتاً .. كالبحر .. أخفاه المساء .. !
خاشعاً .. كالكوكب الناسك .. فى جوف السماء .. !
وعلى عيني أمواج من الدمع .. كأموج الضياء .. !
فطوئى غرفتي .. كالقبر .. ضيقاً وعناء .. !
وعلى نافذتي .. نامت حمامات .. وماتت كبرياء .. !
فأنا الآن .. وحيد .. وعلى عيني شئ من رثاء .. !
يتهاوى العالمُ الضاحكُ يتأ من شقاء .. !
فيه أسلمتُ إلى الليل بقايا .. جُثَّةٍ تأتي البقاء .. !

أوه .. يا طفلاً يتيماً .. نام من غير عشاء^(٢) .. !

وفى قصيدته (القصة التى ضاعت .. !) يواصل تصوير إحساسه بالغربة والرحيل فيقول :

(١) Chateaubriand : Rene - P. 71 - Larousse 1966

(٢) استخدم الشاعر فى هذه القصيدة مجزوء بحر الرمل رباعياً ، مرة ، وحماسياً مرة أخرى ، والقصيدة من مخطوطات ديوانه الذى لم ينشر بعد .

وأَسأل نفسي .. إلَامَ الرحيل إلَامَ سَابَقَى طريداً مسافراً ؟
هذه الغربة الدائمة .. وهذا النفي الأبدى .. هما محصلتان لذلك القلق
الرومانسى الذى يعصف بالشاعر ، ويجعله يصرخ فى قصيدة أخرى ، هى
قصيدة (لحظة الوداع) حيث يقول :

مُرَهَقٌ قلبى .. كمويج حائر مَوغِلٌ فى البحر .. ماضٍ للعدم . !
آه .. لو أُغْمِضُ عيني ساعةً فَأَنَا مِنْ أَلْفِ عامٍ .. لَمْ أُنَمْ . !
كيف أغفو .. وَغَدَى يحملنى لديارٍ .. حُزْنُهَا .. دُونَ حُلُودٍ . !
راجلٌ مِنْ غيرِ زادٍ صامتٌ رغم إدراكى بآنى .. لَنْ أعود . !

★ ★ ★

هذه الأبيات تُذكّرنا بالشاعر الفرنسى (لامرتين Lamartine) وهو يتوجع
فى منفى عزله التى اختارها لنفسه ، صارخاً فى احدى قصائده ، وهى
قصيدة :

(العزلة L'isolement) « ترى لماذا أظل فى أرض المنفى .. وليس يبنى
وبين هذا العالم أى رابطة أو صلة (١) .. ؟ » .

كما تذكرنا بأكثر من صرخة للدكتور ابراهيم ناجى وأبى القاسم الشابى وعلى
محمود طه ، فى هذا المجال : أبى : مجال الغربة والتفنى الفكرى والعاطفى ، وقد
تأثر (ناجى) — مثلاً — تأثراً كبيراً بفكرة التشرد الأبدى عند (لامرتين)
فى قصيدته (البحيرة le lac) (٢) حيث يقول :

« وهكذا قضى الله أن نظل دائماً مدفوعين من شاطئ الى شاطئ محمولين
فى هذا الليل الأبدى .. دون عودة .. » .

Michel Berveiller : L'oeuvre de Lamartine - P. 18 (١)

Ibid - P.22 (٢)

ألا نستطيع أن نلقى المرساة ولو يوما واحدا في عباب الزمن ؟
فلنسرع .. اذن في الاستمتاع بالحب
في لحظتنا السريعة الهاربة ...
فليس للانسان مرفأ في خضم الزمن
ان تياره يسرع .. ونحن ماضون معه .. !

ويقول الدكتور ابراهيم ناجى ، في قصيدته (الخريف) مستوحيا هذه
الفكرة : —

يا فؤادى .. قاتل الله الضجر وعذائى بين حل وسفر
ما ترى قطرة من بعدها راحة تُرجى ، وبأل يستقر^(١)

وقد عرب قصيدة (البحيرة) للامرتين في صياغة شعرية جميلة مزدوجة
القافية ، مطلعها :

من شاطئ لشواطئ جُدِّد يرمى بنا ليل من الأبد .. !
ما مر منه مَضَى فلم يَعُد هيات مَرَسَى يومه لَعَد^(٢) .. !

وهذه الرؤية الرومانسية للكون في شعر « عاصم » ، والتي نجد تأثيرها في
إحساسه الدائم بالغربة والنفى في الكون ، تجعله أيضا ينظر الى الموت نظرة فيها
تأثر شديد بنظرة الشعراء الرومانتيكيين ، ولعل من العجيب أن كبار شعراء
الرومانسية في العالم العربى اتجهوا الى تصوير الموت كأنه فيض من العبقريّة
الغامضة ، أو رمز الى السر الخفى الرائع ، ويتجلى هذا الشعور واضحا في
وصف الرومانتيكيين الأوربيين لشخصياتهم في قصصهم ومسرحهم ، حيث
يتمنون الموت في أسعد لحظات حياتهم ، يقول (ادجار ألان بو) « لا ريب

(١) ديوان ناجى ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٨ .

أن موت امرأة جميلة ، هو خير موضوع شعري في العالم» (١) .

وهذا التغنى بالموت الذى نلمحه لدى (عاصم السعيدى) يبدو فى أكثر من قصيدة من قصائده ، منها : قصيدة (العودة من القبر) حيث يقول :

هأنأ .. قد رجعت من وحشة القبر .. بروحى .. ولعنتى .. ودمارى .. !
دفتنى يدالك .. منذ شهور دفتنى .. ومزقت أشعارى .. !
صدقتنى .. قد كان فى القبر عندى نهر شوق .. وذكريات جميلة
كنت وحيدى .. ولست وحيدى .. فشوقى .. كان عندى يأسوجراحى العليسة
قتلتنى .. والموت أهون عندى أن أراها تعيش روحا وحيدة . !

وفى قصيدة (سهر مع الليل) يصرخ هذه الصرخة :

صديقتى .. هأنأ .. والليل معتكر ولا صديق .. ولا نجم .. ولا قمر
صديقتى أولاً تبكىنى .. أبداً فهأنأ مع ظلام الليل أحتضر ؟

★ ★ ★

وفى قصيدة (الرسالة الأخيرة إليها) يصرخ مرة أخرى ... ثائرا :

أنت وهم .. أنقاضة تهاوى بين عينى .. والأسى يعترينى . !
فاتركينى .. لكى أموت وحيدا غل موقى .. يعيد ماء جبينى
كيف تبكين .. لا وربك أخشى إن همى الدمع أن يميت شموعى
مثلما مات بين جنبى حُب كان يبنى أسواره من ضلوعى
قد تداعى .. وصار قبرا كيبا فيه أودعت ذلتى وخضوعى
اتركينى .. فالقبر يصرخ .. كلاً لقيودى لشقوتى .. لرجوعى

وحين يعود إلى مهد الذكريات .. ومكان التلاقى ، يجد أن أحبابه قد رحلوا .. ولم يعد ثم الا الوحشة الرهيبة ، والصمت الكئيب ، وتعاسة

(١) انظر : « الرومانطيقية ومعالمها فى الشعر العربى الحديث » — عيسى يوسف بلاطة — ص ٦٨ ،
وانظر : « فن الشعر » — ص ٥٨ — للدكتور/احسان عباس .

القبور ، ها هو ذا يرسم لنا صورة للوقوف بأطلال مهد الذكريات أقرب الى الصورة التي رسمها الدكتور ابراهيم ناجي حين قال .

والْبَلَى .. أبصرته رَأَى العيان ويداہ تنسجان العنكبوت . !
صحَّت .. يا ويحك .. تبدو في مكان كل شيء فيه حي لا يموت^(١) . !

ويقول « عاصم السعيدى » :

جئتُ وَخِدى .. إلى مكان التلاقى يا إلهى .. يا ليتى .. ما أتيتُ . !
وتأملتُ في المكان ملياً أين عيناك .. كى تَرى ما رأيتُ
قد تهاوت أنقاضه فهو قبر من سكوت .. على ثراه ارقمتُ
وهو بيتان من قصيدة حُب مات بيت .. وبات يكيه يتُّ . !
يا ظلاماً .. وقفتُ فيه طويلاً .. ثم .. أشعلتُ شمعتى .. وبكى . !

إنَّ التدفق العاطفى الحزين الموغل في بحار الغربة والضياع والموت والعدم ،
والعلاقات العاطفية المُحِبَّة المعذبة ، والقلق العنيف ، هذا التدفق الحزين
يسود مضامين شعره وصوره ... ودائماً ... نحن أمام العذاب والدموع
والبكاء .. أمام الحزن الحائر القلق والرؤية الشاحبة للكون والوجود .. ومن
ثم .. فلا عجب اذا وجدناه يرى أنه إنما وُجِدَ في هذا الكون ، للعذاب ،
وحمل الهموم الثقيلة ، وفي ذلك يقول في قصيدته (لغز الوجود) :

إنَّما نحن للعذاب نُخْلِقُنا وعلينا حمل الهموم الثقيلة . !
قد نُخْلِقُنا لِكَي نكون دموعاً وعذاباً أضع يوماً سيلة

وفي ختام هذه المرحلة النقدية مع شاعرية الشاعر الشاب (عاصم
السعيدى) — الطالب بكلية الهندسة بجامعة السلطان قابوس — بما تبشر به
من ابداعات خصبة سيكون لها — ان شاء الله — شأنها في المستقبل القريب :
حُب في نهاية الجولة أن نشير الى بعض الأخطاء اللغوية والنحوية التي وقع

(١) من قصيدة « العودة » ديوان ناجي — ص ٣٩

ففي ذلك الشاعر الموهوب ، وهي أخطاء لا تقلل من روعة الأداء الشعري المتميز ، ومن هذه الأخطاء — مثلاً — قوله :

« وقد كنت نسرا في الفضاء محلق » .

والخطأ في قوله (محلق) بالرفع ، وكان من المفروض أن ينصب كلمة « محلق » .. فيقول : « محلقاً » .. لأنها صفة لاسم منصوب ، وهو « نسرا » .

ومن أخطائه اللغوية : قوله « ترى .. أى ذنب عظيم ذنبت » والصحيح « أذنبت » ويمكن أن يقول « جنيت » .

ومن أبياته التي يبدو فيها قلق عروضي — وذلك نادر في شعره — قوله :
لى فؤاد قد علمته الليالى أن يودع أطلاله البالية
فالنصف الأول من البيت ، وما قبله من أبيات من بحر « الخفيف » والنصف الثاني لا يستقيم مع ذلك الوزن .

وأخيراً .. فإني أتوقع لذلك الشاعر الشاب (عاصم السعيدى) أن يصبح في السنوات القادمة واحداً من أبرز ممثلى الرومانسية الجديدة بين شعراء الشباب في العالم العربى الذى يفتقد كثيراً .. الآن هذا اللون من الشعر الوجدانى القائم على اختصار الرؤية المعاصرة ، والتدفق العاطفى الحنون ، وروعة الحلم الرومانسى في عصر (الرجال الجوف) و (الأرض الخراب) .. !

(مصادر الكتاب ومراجعته)

- (١) ابن حزم الأندلسي — دكتور زكريا إبراهيم — الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٦٦ .
- (٢) أبو تمام وقضية التجديد في الشعر — دكتور عبده بدوي — مكتبة الشباب بالقاهرة ١٩٧٥ .
- (٣) الأغاني — لأبي الفرج الأصبهاني (طبعة دار الكتب) وطبعة (ساسي) .
- (٤) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث — أنيس المقدسي (ط ٢ — بيروت — ١٩٦٠) .
- (٥) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري — دكتور/محمد مصطفى هدارة — دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٢ .
- (٦) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ج ١ — د . محمد حسين — نشر مكتبة الآداب بالجماميز — القاهرة .
- (٧) إشراقات من الشعر العماني — وزارة التراث القومي والثقافة — مسقط — ١٩٨٠ .
- (٨) تاريخ الأدب العربي ، ج ٣ — العصر العباسي الأول — دكتور/شوقي ضيف — دار المعارف بالقاهرة .
- (٩) تاريخ عمان — المقتبس من كتاب « كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة » تأليف : سرحان بن سعيد الأزكوي العماني — تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي — نشر وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان —
- (١٠) التيار التراثي في الشعر العربي الحديث — دكتور/سعد دعبس — دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٨٣ —
- (١١) تيارات معاصرة في الشعر الجاهلي — دكتور سعد دعبس — دار الثقافة بالقاهرة — ١٩٨٠ .

- (١٢) الثورة العراقية — دكتور /أحمد عبد الرحيم مصطفى — المكتبة الثقافية — العدد الثلاثون — القاهرة ، ١٩٥٢ .
- (١٣) الجاحظ — حياته وآثاره — دكتور طه الحاجري — دار المعارف بمصر — مكتبة الدراسات الأدبية (٢٨) — ١٩٦٢ —
- (١٤) جمهرة اللغة — لابن دريد — مكتبة المثنى — بغداد —
- (١٥) حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث — س . موريه — ترجمة دكتور سعد مصلوح —
- (١٦) حصاد ندوة الدراسات العمانية — المجلد الثاني — نشر وزارة التراث والثقافة — مسقط — ١٩٨٠ .
- (١٧) حوار مع الشعر الحر — دكتور سعد دعبس — مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية ١٩٧١ :
- (١٨) حوار مع قضايا الشعر المعاصر — دكتور سعد دعبس — دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٨٥ —
- (١٩) الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي — دكتور محمد إبراهيم حور — دار نهضة مصر للطباعة والنشر — القاهرة ١٩٧٣ .
- (٢٠) دراسات في الشعر العربي المعاصر — دكتور شوقي ضيف — مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٥٣ —
- (٢١) ديوان « أنت لى قدر » سعيد الصقلاوى — مسقط ١٩٨٥ —
- (٢٢) ديوان « أوراق من شجرة المجد » محمود الخصيبى — مسقط ١٩٨٧ —
- (٢٣) ديوان البارودى (محمود سامى باشا البارودى) — جزءان — ضبط وشرح محمود الإمام المنصورى — مطبعة الجريدة بالقاهرة (بدون تاريخ) .
- (٢٤) ديوان ترنيمة الأمل — سعيد الصقلاوى — منشورات وزارة الإعلام والثقافة بسلطنة عمان — الطبعة الأولى — مسقط ١٩٧٥ —

- (٢٥) ديوان جميل — تحقيق الدكتور حسين نصار — ط ٢ — مكتبة مصر — القاهرة ١٩٦٧ —
- (٢٦) ديوان السيد هلال بن بدر البورسعيدى — تحقيق محمد على الصليبي — نشر وزارة التراث القومي بسلطنة عمان —
- (٢٧) ديوان عاصم السعيدى — مخطوط لم يطبع بعد — سلطنة عمان — مسقط —
- (٢٨) ديوان طرفة بن العبد — دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦١ —
- (٢٩) ديوان عبد الرحمن شكرى (ثمانية أجزاء) دار المعارف بالإسكندرية ١٩٦٠ (طبعة عبد العزيز مخيون) .
- (٣٠) ديوان عمر بن أبى ربيعة — مكتبة صادر — بيروت ١٩٥٦ —
- (٣١) ديوان عنترة دار صادر — بيروت ١٩٥٦ —
- (٣٢) ديوان «قطرة فى زمن العطش» — هلال العامرى — مسقط — بدون تاريخ —
- (٣٣) ديوان «قرارة الموجة» نازك الملائكة — دار العلم للملايين — بيروت .
- (٣٤) ديوان النبهانى — (سليمان النبهانى) وزارة التراث القومي والثقافة — شرح الشيخ سليمان بن خلف الخروصى —
- (٣٥) ديوان الناس فى بلادى — صلاح عبد الصبور — دار الآداب — بيروت — الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥ —
- (٣٦) ديوان «هودج الغرب» — هلال العامرى — مسقط —
- (٣٧) ديوان «وحى العبقري» الشيخ عبد الله بن على الخليلي — وزارة التراث والثقافة بسلطنة عمان ١٩٧٨ —
- (٣٨) الرومانتيكية — دكتور محمد غنيمى هلال — مكتبة نهضة مصر — القاهرة — بدون تاريخ —

- (٣٩) الرومنطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث — عيسى بلاطة — دار الثقافة — بيروت ١٩٦٠ —
- (٤٠) الشعر العماني — دكتور على عبد الخالق على ، دار المعارف بالقاهرة — ١٩٨٤ —
- (٤١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي — العقاد — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٣٧ —
- (٤٢) العشاق الثلاثة — دكتور زكي مبارك — دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٤ .
- (٤٣) عمان منذ ١٨٥٦ م — مسيراً ومصيماً — تأليف (روبرت جيران لاندن) ترجمة محمد أمين عبد الله — وزارة التراث القومي والثقافة — مسقط —
- (٤٤) الغزل في الشعر العربي الحديث — دكتور سعد دعبس — دار النهضة العربية بمصر — ١٩٧٩ — الطبعة الثانية —
- (٤٥) الغزل في العصر الجاهلي — دكتور أحمد الحوفي — الطبعة الثانية — مكتبة نهضة مصر — القاهرة ١٩٦١ —
- (٤٦) الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين — حميد بن محمد بن رزيق — تحقيق عبد المنعم عامر والدكتور محمد مرسى عبد الله —
- (٤٧) في الحب والحب العذرى — دكتور صادق جلال العظم — منشورات نزار قباني — بيروت سنة ١٩٦٨ —
- (٤٨) القاموس المحيط ج ٤ — الفيروزابادي — ط ٤ — المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٣٨ —
- (٤٩) قضايا الشعر المعاصر — نازك الملائكة — ط ٣ — ١٩٦٧ —
- (٥٠) القيم الروحية في الشعر العربي — قديمه وحديثه — ثريا ملحس دار الكتاب اللبناني — بيروت ، ١٩٥٠ .
- (٥١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعر والبلغاء ج ٣ — أبو القاسم حسين

- بن محمد الراغب الأصهباني — دار مكتبة الحياة/بيروت ، ١٩٦١ .
- (٥٢) المخصص — لابن سيده — المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر — بيروت .
- (٥٣) معجم البلدان — أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله — المجلد الأول — مكتبة خياط — بيروت .
- (٥٤) المنازل والديار — أسامة بن منقذ — تحقيق مصطفى حجازي (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — القاهرة ، ١٩٦٨) .
- (٥٥) الموازنة بين أئمة وأئمة — للآمدي — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد — المكتبة التجارية الكبرى — الطبعة الثانية — القاهرة ، ١٩٥٩ .
- (٥٦) الموازنة بين الشعراء — دكتور زكي مبارك — ط ٢ — مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ، ١٩٢٦ .
- (٥٧) الندوة الأولى لشعراء دول الخليج العربية — نشر وزارة التراث القومي والثقافة — مسقط ، ١٩٨٢ .
- (٥٨) الوطن في الأدب العربي — إبراهيم الأبياري — وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر — (المكتبة الثقافية ٧٣) القاهرة ، ١٩٦٢ .
- (٥٩) الوعي القومي — قسطنطين زريق (مطبعة الاتحاد — بيروت ، ١٩٤٠) .

(فهرس الموضوعات)

رقم الصفحة	الموضوع
أ - د	المقدمة
	المبحث الأول :
٢٤-١	تيار الغزل التراثي بين (النبهاني) و (البارودي)
	★ ★ ★
	المبحث الثاني :
٥٥-٢٥	الرؤية الوطنية في الشعر العُماني الحديث
	★ ★ ★
	المبحث الثالث :
٨١-٥٧	عن العُربة والحب في شهر هلال العامري
	★ ★ ★
	المبحث الرابع :
١١٠-٨٣	تيار الغزل في شعر (سعيد الصقلاوي) بين : التراث والمعاصرة
	★ ★ ★
	المبحث الخامس :
	(مع شعراء الشباب بجامعة السلطان قابوس) : (عاصم السعيدى) بين :
	المعارضة التراثية
١٣٢-١١١	والرؤية الرومانسية
	★ ★ ★
	١٣٩

١٣٣

١٣٩

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

★ ★ ★

صدر للمؤلف

- ١ — الغزل في الشعر العربي الحديث — ط ٣ — دار الصدر لخدمات الطباعة والنشر — بالقاهرة .
 - ٢ — التيار التراثي في الشعر العربي الحديث — دار الفكر العربي بالقاهرة .
 - ٣ — تيارات معاصرة في الشعر الجاهلي — دار الثقافة بالزمالك — القاهرة .
 - ٤ — حوار مع قضايا الشعر المعاصر — دار الفكر العربي بالقاهرة .
 - ٥ — حوار مع الشعر الحر — مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية .
 - ٦ — قراءة متعاطفة مع الشعر الجاهلي — دار الصدر لخدمات الطباعة والنشر بالقاهرة .
 - ٧ — قراءة جديدة في الشعر العربي الحديث — دار الصدر لخدمات الطباعة والنشر بالقاهرة .
 - ٨ — تيار رفض المجتمع في الشعر العربي الحديث — دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية .
 - ٩ — نازك الملائكة : دراسات في الشعر والشاعرة — بالاشتراك مع آخرين — جامعة الكويت .
 - ١٠ — البحث عن إنسان (ديوان شعر) دار الصدر لخدمات الطباعة والنشر بالقاهرة .
 - ١١ — قصائد للإسلام والقدس (ديوان شعر) دار الصدر لخدمات الطباعة والنشر بالقاهرة .
 - ١٢ — أغاني إنسان (ديوان شعر) مطبعة الرسالة بالقاهرة .
 - ١٣ — اعترافات إنسان (ديوان شعر) مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية .
- والله الموفق —

رقم الايداع
١٩٩١ / ٥٥٦١

